

الحج والنبيك

ملاسل

علاء بن جابر الفيفي

الطبعة الأولى

دار النشر والتوزيع



جَفَوُ الطَّبْعِ مَحْفُوظًا
 الطبعة الأولى
 ١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٩١٢٧
 ردمك: ٧-٥٥-٨٢٥٢-٦٠٢-٩٧٨

تمويله وإخراجه
 مصطفى هادي
 Mustafa.h123@hotmail.com



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



الإهداء

كان النبي ﷺ إذا أراد أن يخطب يستند إلى جذع شجرة ويخطب..

و ذات يوم صنع أحد الصحابة الكرام للنبي ﷺ منبراً ليخطب عليه بدل ذلك الجذع، يقول الراوي: فلما وُضع المنبر أول ما وُضع، وجاء النبي ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى المنبر، فعند ذلك حنّ الجذع، وجعل يشنّ كما يشنّ الصبي..

إلى «الجذع» الذي حنّ ذات يوم للحبيب - عليه الصلاة والسلام - أهدي هذا الكتاب.

علي بن جابر الفيافي

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وصحبه ومن
والاه، وبعد؛

فإن نفسي منذ زمن تُراودني لأكتب في السيرة النبوية،
والحديث عن أيام المصطفى ﷺ وأخوض تجربة التشرف بكتابة
شيء عن شمائله وصفاته الزكية النقية، فأجدني أنهيب وأنردد
حيناً، وأعجز وأحار حيناً.

ولا أخفي القارئ أن لي محاولات سبقت هذه المحاولة،
كانت الأولى منها قبل اثني عشرة سنة خصصتها لرحمته ﷺ
ثم ضاع كل ما جمعته وكتبته، والحمد لله الذي لا يُقدر إلا
الخير.

ولي محاولة أخرى بدأتها قبل سنتين، وصرْتُ أنعهدها كلها
نشطت المهمة في الإجازات مُضيفاً، أو مُغيراً ومُعدّلاً، يسر الله
إتمامها على ما يحب ويرضى سبحانه.

أمّا هذه الأوراق الموسومة بـ «الرجل النبيل» فقد طرأت
فكرتها قبل شهرين تقريباً، ثم وجدْتُني أكتبها، وكأنَّ سنّاً ما

قد شق لي، فأسلكه وأنا خير بمضائقه ومهايعه، ووجدت
راحة في كتابة هذه الأسطر، التي تأخذ من كتابة السيرة
شيئا، ومن كتابة الشئائل شيئا، ومن سير الصحابة الكرام
شيئا، فكانت مزيجا محمديا إن صحَّ التعبير، وسيرة
موضوعية، لم أحرص على شكلها بقدر حرصي على ذاك
المذاق العام الذي أرجو أن يحسَّه القارئ، مذاق الحبِّ
والهبة لهذا النبي العظيم.

سمَّيتُ هذه الأوراق «الرجل النبيل»؛ لأنَّه ﷺ أنبلُّ
رجل عرَّفته البشرية؛ ولأنَّ النُّبل ظاهر في تفاصيل حياته،
في رضاه وغضبه، في حزنه وفرحه، قبل نبوته وبعدها،
فهو بحقُّ الرجل النبيل.

ولا أخفي أنَّ إخوة فضلاء كُثُرًا قد اقترحوا عليَّ خوض
هذه التجربة بعد صدور كتابي «لأنَّك الله» فقالوا: لماذا لا
تكتب شيئا عن النبي محمد ﷺ لعلَّ الله يفتح عليك ما
يفيد الأجيال المتعطشة لمعرفة سيرته، والاقتداء بهديه.

فلعلَّ اقتراحاتهم، ودعواتهم، وسابق اهتمام وقراءة
لديَّ في هذا الجانب، ثم قيل هذا وبعده إرادة وتيسير
من الله - سبحانه - كانت كلها أسبابا جعلت هذا العمل

المتواضع يظهر، وإن كنت أرى أنه بحاجة إلى تهذيب أكثر،
وزيادة فصول أخرى مهمة تتعلق بجوانب من شخصيته
ﷺ.. فلعل مثل هذه الإضافات تخرج في المستقبل في نفس
هذا الكتاب، أو في جزء آخر منه!

أسأل الله تعالى أن يجزي خيراً كل من اقترح، أو دعا، أو
راجع، أو صوّب، وأخص الشيخ الفاضل: أحمد بن غانم
الأسدي (صاحب الكتب المباركة في سيرة النبي ﷺ) فقد
قرأ جزءاً كبيراً من الكتاب، وتفضل بتصويبات نافعة،
وإرشادات مهمة فجزاه الله خيراً.

وأسأل الله أن يبارك في هذا الكتاب، ويُفضل - سبحانه -
على كاتبه ووالديه وأهله، وكل قارئ له، ويغفر لنا ولجميع
المسلمين.

وأن يُنيلنا - سبحانه - شفاعته نبّه الكريم.. هذا وصلى
الله وسلّم وبارك على سيّد الخلق محمد، وعلى آله وصحبه
أجمعين.

علي بن جابر الفيقي





لو استطعنا العودة إلى الوراء أكثر من ألف وأربع مئة
وخمسين سنة، والدلوف إلى مكة، والنظر إلى سوق من أسواقها
نظرة علوية، لكُنَّا رأينا صورة مكتظة بالحياة والحركة.

فهذا رجل يبيع قماشاً جلبه من رحلته إلى اليمن، ويُغالي
في سعره لينال من ذلك الحاجُّ ثمنًا طيبًا، يرفع من مستوى
معيشتِهِ.

وذاك آخرٌ يَعرِضُ سيوفًا ودروعًا هندية، ويقف أمامه
ثلاثة بناملون ما جلبه من سلاح جيد الصنع.

وهناك امرأة تسقي الناس الماء..

وفي مدخل السوق رجال متحلقون حول سائس خيول
يُعلي صوته في وصف فرس أصيلة، يدّعي نُمُزها وتفرُّدها في
الصفات.

وهناك (دكَّان) تدخله النساء خفِراتٍ ليشترين حاجياتهنَّ،
ويخرجن متلفعاتٍ بمُرطهنَّ حياءً وجِشمةً.

وفي ظل تلك الشجرة يجلس الشاب "محمد" هادئ
أصوت، متنقّ القسّات، وقد بسط بضاعته كما يفعل كل
مَن في السوق، فإذا ما وقف مُشترٍ يسأله عن سلعة ما، ذكر له
مميزاتها كما يفعل أي بائع، ثم أردف بذكر بعض ما يعيبها، فلا
تُفَرُّ تلك المعاييب المشتري بقدر ما تُغريه للشراء؛ لأنها تُشعره
بمصداقية هذا الرجل الأمين.

كان جميع مَن في السوق يرمُقون الحياة بعيون لا ترى غير
الدينار والدرهم، ويستمعون إلى ذلك الضجيج بأذان لا
يصل إليها إلا لغة: "مَن يزيد؟ مَن يزيد؟" .. ولا عجب، فهذا
سوق، ومن الغريب ألا يكون الشخص بهذه الكيفية في سوق
يجتمع فيه الناس للبيع والشراء.

ولكن العجب هو مجموعة القيم التي تُشكّل سورًا يُحيط
بذلك الفتى آنف الذكر، والتي تجعل الدينار والدرهم في منزلة
متأخرة من اهتماماته، وكأنه لم يحضر للسوق لبيع، وإنما ليورّع
شيئًا من رُؤاه، واعتقاداته، ومبادئه بالمجان، حتى ينضج على
هذه الكُتَل البشرية شيئًا من إنسانيته المكتظة بالأشياء الثمينة.

كان يسمع الكذب الذي تشره الأفواه في أزقة ذلك السوق،

وسير به وديان مكة أحرّ السهار، فيقاومه بأحرف يتحرى
بهرّ الصدق أدق ما يتحرى . وكأنه يتخايل كلمات الصدق،
وهو يشمخن بأنفة بين أطنان الكذب المبت.

وسؤال يُسَعُّ من عينيه: ما قيمة الحياة بلا صدق؟ وما أهمية
الوحد بلا أمانة؟ وما فائدة البقاء بلا نُبل؟

نهم شمس ذلك اليوم بالغروب، فإذا بكل بائع يفتح مخبأه،
أو حُرّة نفوده الحِلْدِيَّة ليعُدّ دنائره التي جلبها له الكذب
نارِد، والحلف باللات والعزى على أن تلك السلعة من
أحرد ما يمكن شراؤه. يسها محمد يسير مُتَّحِها إلى بيت زوجته
خديجة، منشغل البال بأولئك الذين يعتقدون أن الكذب
البوابة الوحيدة لجني الأرباح، ويتمنى لو استطاع أن يزرع ما
يؤمن به في تلك القلوب المنهكة، التي تظن أن الحياة غير ممكنة
بدون شيء من الزيف والمكر.

يصل إلى بيته، ويدفع بغلة تلك الجولة إلى زوجته، ويحمل
شيئا من الزاد الذي هيّأه له خديجة، وينطلق بهدوء إلى المكان
الذي يجد فيه نفسه، ويلعلم فيه شتات رُوحه التي مرّقتها
حاملة ذلك الزمن المظلم.

❧ في الفار

ليس في طريقه إلى عزلة شجرة ولا حجرة؛ إلا وشيء
كاهية يَغشاهما إذا ما مرَّ بجوارهما! مِنْكَ ما ينبعث من
خطواته، وشذى خاص يتُّج عن امتزاج عطره بعطر تلك
الجمال الشاعنة التي ينظر إليها، وتنظر إليه.

وما هي عزلة؟

لقد أنهكه الإنسان بشكله الحالي، لقد تعب من الكذب
الذي يُلَفُّ الشاعر والأحاسيس والمعتقدات.. كل شيء حوله
يمارس حيانة ما، وهو الوحيد الذي بات البياض هو اللون
المفرد لنسج نفسه الطيبة.

إن هؤلاء يسجدون للأصنام، هذه الأصنام التي لا يشعر
نجاها بأي شعور إيجابي!

ويذبحون للأوثان، ويحلفون باللات والعزى، ويَزْنون،
ويكذبون، ويغشون، ويشهدون الزور، ويدفنون بناتهم،
ويشنون الغارة تلو الغارة لأجل ناقة مسروقة، أو كلمة
منطوقة! ما الذي تبقى من القبح لم تقترِفِه أرواحهم؟ كل شيء

أسود مظلم بات عادةً وتقليدًا يحاربون من أجله، ويدافعون عنه، ويهتفون به.

هذه الحياة السوداء لا تليق بمحمد، مهما حاول أن يمسح شيئًا من السواد عن لوحنها الكبيرة، إن الأصباغ القائمة تراكت بطيش، حتى بات من العسير إضافة لون أبيض، أو معنى جميل؛ لذلك فقد حُبب لهذا الشاب أن يترك الجاهلية وراء ظهره، ويذهب كلُّها سنحت له الفرصة إلى تلك الجبال البعيدة، تلك الجبال التي يسمّعها تهمس بأشياء تُدركها رُوحه، ولا ينحققها عقله، كأنها تُريد أن تقول له شيئًا مهمًّا للغاية، كأنها تُريد أن تنصيح له عن ماهيته التي ما زال حتى اللحظة لا يدركها.

يصل إلى تلك الجبال، فتنهال عليه مشاعر يصعب على أهل مكة إدراكها، مشاعر تجعل الحياة كلُّها شيئًا صغيرًا بموازاتها. يرمق الغار وكأنَّ صداقة حميمة تربطه به، فيرقى صخور ذلك الحبل متوسط الشموخ، وكأنه لا يمكن لشموخين عظيمين أن يجتمعا في مكان واحد!

يدخل الغار، فيلتقي النوران، نور يتدفق منه، ونور آخر يتدفق إليه.

والعار بعد أن كان جزءًا من جبل صغير، بات الجبل
العظيم (محمد) جزءًا منها والعادة أن تكون المغارات في
الجبال لا الجبال في المغارات.

يُنزل زَوَادته في زاوية من زوايا الغار، وَيَقْرش بِسَاطه،
وَيَنْظُر، وَيبدأ في التَحَنُّث، وهذا التَحَنُّث والتَعَبُّد هو حياته
التي يتزوّد لها، ورحلته التي بتجشّم لها.. ويأخذ في انهيالات
تنزيه خالقه عمّا يسمعه ويراه من تجاوزات البشر الذين عبدوا
كل شيء غير ذلك الخالق، عبدوا الحجر والشجر والشمس
والقمر، عبدوا الشهوات والأهواء، وبنوا آلهتهم من الآجر
والطين والتمر والسمن، ثم سجدوا لها.. وتركوا رب
السموات السبع، ورب الأرض، رب العرش العظيم.

تُرى من أين جاء ذلك النور لقلب محمد؟ وكيف اتّسقت
هالاته في قلبه بتلك الكيفية العجيبة؟

هل حادثة شقّ صدره في شُعب بني سعد هي البداية؟
عندما كان في السادسة من عمره وهو يلعب مع الصبيان، إذا
برجلين غريبين يقدّمان، فيهرّب الجميع منهما عدا، فيضجّ عاناه
أرضاً، ثم يشقّان صدره، ويتزعّان منه عِلقة سوداء، ثم يقول
أحدهما للآخر: هذا حظّ الشيطان منه.

ويعرعان حطّ الشيطان، فيعدو إنساناً يعيش بلا مرعات
شيطانية!

ثم يحشوان صدره نوراً، ويعسلان قلبه بهاء المزن، ثم
يُعبدانه ويرتقان ذلك الشق.

هل تلك القصة هي بداية تلك الأنوار في ذلك الإنسان؟
أم أن هناك إرادة سقت تلك الحادثة، فكتب السّير تروي
أنّه مد أن ولد كان طفلاً عريب الأطوار، ما إن وضعت أمّه
حتى شحّص بعينه الصغيرتين إلى السماء، وكأنّه من أول
مرّة. بل من أول لحظة يُعلن انتهاء كل شيء فيه لحنة السقاء
والصفاء والعظمة!

بل ويروى أنّه -وقبل ولادته- كانت هناك إرهاصات
تؤكد أنّ شيئاً قادمًا إلى الدنيا لا ينتمي إليها إلّا بقدر انتهاء نور
الشمس إلى الكون، سيأتي ليضيء الأرض، وإن كان سهاويّ
التوجّه والاهتمام والمرجعية.

فقد رأت أمّه آمنة بنت وهب نورًا يخرج منها نُضْيء له
فصور بُضرى في الشام!

ثم إذا رجعنا إلى الخلف أكثر، قرأنا عن إرهاصات متعددة

تستبشر بقرب مجيء الرجل الأهم في التاريخ.. إذن ليست
أنواره حادثة، ولا إرادة أن يزور هذه الحياة قريبة، إنها بعمر
هذا الكون، لقد قدر الله أن يكون هذا الرجل هو نهاية عهد
الظلام الإنساني، والكذب البشري، وطغيان الزيف، وتغول
الفجور.

❧ التحوّل

وبينا هو في غمرة أذكاره، وتسيحاته.. إذ بزائر غريب
يلج الفار!

فينهض محمد ليقف وجهًا لوجه مع القادم الغريب، إنه
يحمل أنسامًا غريبة تُشب أنسام الرجلين اللذين شقّا صدره في
الصفرة.

يقترّب، وكأنّ السماء اقتربت منه، إنه يحمل شذى السماء
السابعة! وإحساسات ليست أرضية على كل حال.

إنه جبريل أعظم ملائكة السماء.. لقد نزل ليوصل لهذا
الرجل رسالة خاصة من الله!

لقد بات محمد نقيًا لدرجة الصفاء البحت، وبات داخله

سواء ملبئة بالأنوار، وعالماً مُتَخَيِّراً بالطهر، وهذا هو الحيز
المناسب لتنزل فيه أعظم رسالة، تتضاءل عن حملها الجبال
الشامخة، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِيْعًا
مُّتَصِدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾.

لقد بات محمد جاهزاً ليكون أشد من جبال الدنيا جميعاً،
وأطهر من مياه الكون بأكمله، وأنور من شمس المجرة
مجتمعة.

يقرب جبريل من محمد، والاستعراب يطوّقه، والتساؤلات
تهال بعراة، فإذا بصوت جبريل المتخّم بالوحي يملأ العار
الذي في الجبل، والجبل الذي في الغار بالرهبة، والهيبة، والحب:
(اقرأ)..

إن شيئاً عظيماً، مفتاح عظمته أنه يُقرأ، سينزل عليك الآن!
إن أول كلمات الله المقدّسة ستلامس شغاف قلبك بعد دقيقة..
يجب على خلاياك في هذه اللحظة أن تنهضاً نهوضاً خاصاً..
(اقرأ)..

فنجيب محمد: ما أنا بقارئ..

أما لا أفرق بين الألف والباء، ولا أجيد مسك القلم، ولم
أتعلم كيف تُنطق الحروف المكتوبة، فكيف أقرأ!

فبَضَمَهُ جبريل ضَمَّةً ظَنَّ مُحَمَّدٌ أَنَّهَا الموتُ الشَّدَّةُ، وقَوَّتها.

﴿إِنَّا نُلْقِيَ عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، إن القول الثقيل بحاجة إلى رمز
يُثَبِّتُ بِثِقَلِهِ، وإرهاص يتحدث عن عظمتِهِ، ورسالة تذكُرُ
شِدَّتَهُ.. فكانت تلك الغَطَّةُ والغَتَّةُ والضَمَّةُ إيذانًا بأن شيئًا
سماويًا جليلاً سيضمُّ تلك الأنوار التي في صدرك، ويجعلها
تندفق لا على مكَّة فحسب، بل على القارَّات السبع، ليتهاي
عهد الظلام في هذا الكون المظلم.

فبَرَكَه جبريل، ويُعيد عليه: (اقرأ)..

فبُعِيدَ مُحَمَّدٌ مَقُولَتَهُ: ما أنا بقارئ..

فبَعُودُ جبريل لِيَضُمَّ الضَمَّةَ الثانية، تأكيدًا وتثبيتًا لمبدأ ثقل
الرسالة، وعظمة الوحي، وصعوبة المرحلة.

ثم يترُكه، ويُعيد نفس الكلمة: (اقرأ)..

فبُعِيدَ نفس الجواب: ما أنا بقارئ..

فتَعُودُ تلك الضَمَّةُ الشديدة، التي تُشَبِّه الموت لشِدَّتِهَا،

وَنُشِئَ الْحَيَاةَ لِعَظَمَتِهَا.. وَكَأَنَّ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ تَحَالَفَا فِي لَحْظَةٍ
لِيُشْكَلَا بِدَايَةِ مَوْتِ الْوُثْنِيَّةِ، وَحَيَاةِ النُّورِ!

وهنا يتوقف الكون مصغياً لأول الرسائل القادمة من
السما إلى الأرض، وأول خيوط النور الإلهي المتسلل عبر
أبواب السماء العالية: ﴿أَفْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَفْرَأَ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ
الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

هكذا قالها جبريل. فما بَقِيَتْ خَلِيَّةٌ فِي جَسَدِ مُحَمَّدٍ ﷺ
إِلَّا وَأُخْبِتَتْ.. وما بَقِيَتْ ذَرَّةٌ فِي مَسَاحَاتِ الْكَوْنِ الْهَائِلِ إِلَّا
وَاسْتَبْشَرَتْ.. إنها اللحظة التي تَحَوَّلُ فِيهَا مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ
الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ الْقُرَشِيُّ مِنْ مُحَمَّدٍ إِلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ، وَمِنْ الرَّجُلِ
الطَّيِّبِ الصَّالِحِ الصَّادِقِ الْأَمِينِ إِلَى النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﷺ، وَمِنْ أَحَدِ
الْعَالَمِينَ، إِلَى رَحْمَةِ الْعَالَمِينَ.

إن نزول النبوة على شخص كان قبل لحظات شخصية
عادية، ثم وبعد لحظات تحوّل إلى شخصية عظيمة، بل وأعظم
شخص في الوجود لا ينبغي أن تُتصوّر هيئته، أو عاديته، إنها
أثقل من الجبال نفسها، وأغرب من الوجود ذاته، وأهيب من
إشعاعات الشمس عينها.

إن ما حدث في غار حراء، تلك اللحظات أصعب من أن يُعَبَّرَ عنه بالأحرف الثمانية والعشرين، مهما شكَّلتها، وأعدتها، وغيَّرت مواضعها.. إنها النبوة، والرسالة، والاصطفاء في لحظاته الأولى.

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، إنه الله الذي جعل الرسالة تهبط على قلب بشري غافل عن معنى الرسالة، وعن ترقب الرسالة، وعن إرادة أن يكون رسولاً، ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفِيلِينَ﴾.

لذلك فبعد أن خرج جبريل من الغار، تبعه النبي ﷺ وهو يرجف، خوفاً، ورهبةً، واستغراباً، ونزل من الجبل وكأنه حديث عهد بزلزال شديد، أو كأن براكين ضياء نائرة في داخله.

وصل إلى زوجه الطاهرة الصالحة خديجة وهو يرجف، ويقول لها: «دثروني، دثروني»، إنه أشدُّ برد يُصاب به إنسان! إنه البرد الذي يعقب التحول من الرجل الذي يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق إلى الرجل الذي ينزل عليه خبر السماء في الصباح والمساء.

جمعت خديجة ما في بيتها من الأكسية والأغطية، ثم جعلتها عليه، إلى أن سکن، ثم سألته عن خبره، فأخبرها بما رأى، وما أحس، وما سمع.. فقالت: كلاً والله، لا يُخزیک الله أبداً.

فكانت هذه الكلمة التي قالتها خديجة عليها السلام شعاراً لكل فصول حياة هذا الرجل النبیل، والذي لم یجد الخزي في حياته، بل وجد الله معه، مؤيداً ونصيراً، ومُعِيناً وظهيراً.

مضت الأيام، وباتت النبوة جزءاً لا يتجزأ من محمد عليه السلام، وصار له أتباع اهتدوا بهديه، واستنوا بسنته، وبات له خصوم نابذوه العداء، وشنوا عليه الحروب المعنوية والحسية.. وصار محمد قصة تُروى، وهداية يُسترشد بها.. صار نوراً وظلاً، وهُدًى للعالمين.

صار رمز النبیل، والحب، والوفاء.. وها نحن نعيش في هذا الكتاب مع نبله، وحبّه، ووفائه.. مع شجاعته، ورحمته، وإلهامه.. مع أخلاقه النبيلة، وصفاته الجليلة.



المعجم الوردی

«لو رآك النبي ﷺ لأحبك..»

عبد الله بن محمود دهمي

السجدة النبوية

تأليف: عبد الله بن محمود دهمي

المعجم السوردي

كان عليه السلام قلبًا يشتر الحب ذات اليمين وذات الشمال؛ فصنع
منه الحب شذى خالداً، لا يمكن نسيانه، حتى إن صحابه
الذين كانوا قبل بعثته عرباً عجمتهم الصحراء بمزاجها
الشاحب، وشموستها الغاضبة: باتوا بعد أن تناول نفوسهم
بمضغه أرواحاً تعشق الحب، وتشد له، وتتموج مع ألحانه.
لقد بقص عنهم اللون الأصفر الكالحي؛ فباتت أرواحهم
وردية اللون.

لقد وجدهم محمد عليه السلام رجالاً يدفنون بناتهم؛ لأنهن إناث،
ويعذون المرأة عازاً، ويقتل أحدهم أخاه؛ لأجل صرة نقود!
فأعاد صباغتهم من جديد، مستخدماً (إكسیر) الحب؛
فخرجوا خلقاً جديداً كأن لم يتباغضوا بالأمس!

هذا عمر عليه السلام، ذو النفس الشديدة في ذات الله، يعبر ذات
مساء عذب النسمات أنه يتمنى لو أن لديه بيتاً مليئاً برجال مثل
أبي عبيدة.

وهذا أبو ذر رضي الله عنه يضع خدّه على الأرض آمراً بلالاً رضي الله عنه

عنه أن يطاءً بقدمه؛ لأنه جَرَحَهُ بكلمة لا قَلِيْقُ بِلال، فَيُنْهَضُه
بِلالٌ ويعانقه.

وهذا سعدُ بن أبي وقاصٍ ؓ عنه يمشي بين يدي جنازة
عبد الرحمن بن عوف ؓ عنه خاتِرُ القَوَى، مُنْهَكُ النفس،
يقول بصوتٍ متشَقِّقٍ: واجبلاه.

لقد صارت أنفسهم تفهم شيئاً اسمه الحب، بعد أن كان
الحب بالنسبة إليهم لغةً لا يمكن فكُّ رموزها!

إنها عبقرية الحب، التي استطاع بها النبي ﷺ أن يعيد إنتاج
تلك الأنفس؛ فانتفضت فيها الحياة، وانبعث منها نسائمُ
العطر..

❧ لا أدري..

في طريق عودة النبي ﷺ من الحُدَيْبِيَّة، كانت مشاعرُ
المسلمين في أعلى مستويات الكآبة؛ إذ إنهم - وكان هذا
اعتقادهم في تلك الساعات - لم يَجْنُوا من سفرهم ذاك إلا
تعبَ الطريق؛ فلم يعتمروا، ولم يكخلوا أعينهم برؤية الكعبة
المشرقة، بل لقد وَقَعَ بينهم وبين المشركين صلحٌ ظنوا بنوده
كلها في صالح خصمهم!

في هذا الطريق المليء بالإنهاك، إذا بالبشرى تنزل من السماء؛
يقول تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ
لَكُمُ هَٰذِهِ﴾.

وكانت هذه المغانم هي فتح خيبر، وقد قدمت بهذا لتعلم
كيف أن فتح خيبر كان سعادة وبشارة، وغسلاً لأرواح أنهلكها
صلح الحديبية، الذي لم ير الصحابة بعد كيف أنه فتح مبين، وعز
وتمكن!

وبعد أن تحقق ذلك النصر في خيبر للنبي ﷺ، وكان شيئاً
كالهدية من الله، بلا كثير عناء، ولا كبير مشقة، نالوا فيه مغانم
وصفها الله تعالى بالكثيرة!

وفي طريق العودة من خيبر، إذا بصديق قديم، وقريب
حبيب، وحب عميق يظهر في الطريق.. إنه جعفر بن أبي
طالب، بعد غياب دام أكثر من عشرة أعوام، كلها شوق ممض
لرفيق الأيام الأولى من الإسلام، فيلغي النبي ﷺ مراسم
اللقاءات الرسمية، ويعانق جعفرًا بحرارة، ويقبل بين عينيه،
وكانه يؤدعه أشواق السنوات الرهيبة من عمر الدعوة.

ثم بكل حب، وبكل قلب مفعم بالأشواق يهتف: «ما

أدري بأيهما أفرح: بقدوم جعفر، أم بفتح خير؟^(١)
 فيجعل لقاء ابن عمه وصديقه القديم: في كفة موازية
 لذلك الفتح الذي كان سعادةً وعِزًّا وبشارةً
 إنها طاقة الحب العجيبة في قلب هذا الرسول العظيم ﷺ.

❧ ثم من؟

كان النبي ﷺ يُشعرُ كلَّ فردٍ ممن حوله أنه استأثره بذروة
 الحب؛ لما يريه من احتفائه الخاص به، وإقباله عليه، وتبسمه له.
 فهذا عمرو بن العاص (رضي الله عنه) كان يتلقاه النبي ﷺ دائماً
 بالانسامة والاهتمام، فما إن يَضُمُّها بيت، أو يجمعها حديث
 حتى تأخذ مشاعرُ الحب ترفرف كطيور بيضاء، وشعور الود
 يتعاضد إلى درجة أن عمراً اعتقد مع الأيام أنه أحبُّ الناسِ
 إلى النبي ﷺ؛ فليس من معهود عمرو أن مثل هذا القدر من
 الحب يخرجُ إلا لإنسان يكون الأثير والأحب والأقرب عند
 صاحبه وجليسه ورفيقه.

وتوَّج النبي ﷺ ذلك الاهتمام الخاص بأن بعثه على رأس
 جيش غزوة ذات السلاسل، فوجد عمرو أن الفرصة سانحة

(١) رواه الحاكم في المستدرک.

ليكتشف الحقيقة، فأقبل إلى النبي ﷺ وسأله: أيُّ الناس أحبُّ إليك؟ فعاش لحظاتٍ انتظارٍ سماعِ اسمه في أعلى القائمة، فإذا بالإجابة تأتي: عائشة! فقال عمرو: من الرجال؟ فقال النبي ﷺ: أبوها.. فكان خيبةٌ ما مسَّت قلبَ عمرو، فقال والأملُ ما زال يلوح: ثم من؟ قال: عمر بن الخطاب.. وما زال عمرو يقول: ثم من؟ وتأتي الأسماء، ولا يكون منهم عمرو^(١).

لا شك أن عمرًا سيكون في القائمة، ولكنَّ اسمه سيأتي متأخرًا بعض الشيء، فما زال أحبابه الأولون يعيشون في ذاكرته، ويتحركون في دمائه.

ولكن أجبني الآن: ما الذي جعل عمرًا يظنُّ أنه الأحب؟
أليست عبقرية الحبِّ التي استطاع النبي ﷺ أن يسعَ بها كلَّ من حوله؟

❦ المعجمُ الوردِي

كان للحبِّ مفهومٌ خاصٌ عند النبي ﷺ.. فالحبُّ - كما في معجمه الوردِي - رزقٌ يُرزقُه العبدُ؛ فإذا خفقَ قلبٌ لقلب،

(١) القصة في البحاري.

فهذا لأن الله أراد لذلك القلب أن يخفوق.

قال متحدثًا عن خديجة عليها السلام بعد موتها: «إني قد زينت حبها»^(١)، هكذا هو الحب؛ شيء يأتي من الله، لا حيلة للقلب فيه.

وكان يقسم بين نسائه فيعدل بينهن، ولكن كان في قلبه حب واضح لعائشة، حب لا يخفى على أحد.

إذا فحققت القلب لإنسان ما، وميل الروح إلى روحه، ليست مما يملكه الإنسان؛ لذلك فما كان للنبي صلى الله عليه وسلم أن يعاند هذه الإرادة الإلهية في قلبه، بل كان يميل مع إرادة الملك سبحانه في غير ظلم، أو قطيعة رحم.

كان يتساءل صلى الله عليه وسلم في مرض موته في كل ليلة: أين سأكون في الغد؟ متعجلًا اليوم الذي يصبح وهو عند حبيبته عائشة! إنه الحب الأقوى من كل شيء، الذي يغلب كل شيء، ويتجاوز كل شيء.

(١) رواه مسلم.

❧ أَحِبُّكَ

يمشي مُعَاذُ ذَاتِ يَوْمٍ، يمشي كما يمشي الآلاف، لم يكن يعتقد أنه على موعدٍ بعد لحظاتٍ مع أجمل كلمةٍ يمكن لأذنيه سماعها في حياته كلها.

فإذا بالنبِيِّ ﷺ يقترب منه، ويُمسِك بيده..

أيُّ دفءٍ يَخْطُطُ النبي ﷺ أن يَغْمُرَ مُعَاذًا به؟

ثم يقول: «يا مُعَاذُ، والله إني أُحِبُّكَ»^(١).

يا مُعَاذُ، يمكنك أن تتوقَّفَ الآن عن المسير، وعن الكلام، وعن كل شيء؛ فالنبيُّ ﷺ يَحِبُّكَ!

يا مُعَاذُ، ما قيمةُ الحياةِ بعد هذه اللحظة الباذخة؟

ما حجمُ الفَرَحَةِ التي أحاطت بك من جميع الجهات؟

ما هيئةُ الألوان التي انتشرت أمامك الآن؟

النبيُّ ﷺ يَحِبُّكَ!



(١) أخرجه أحمد وأبو داود.

أَتَعْلَمُ لِمَاذَا كَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ عَنْهُ يَحِبُّ أَنْ يَكْنِيَهُ
النَّاسُ بِأَبِي تَرَابٍ؟^(١)

❧ اسْمِعِ الْقِصَّةَ:

جاء رسولُ الله ﷺ بَيْتَ فَاطِمَةَ، فلم يَجِدْ عَلِيًّا فِي الْبَيْتِ،
فَقَالَ: «أَيْنَ ابْنُ عَمِّكَ؟»، فَقَالَتْ: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ شَيْءٌ،
فَغَاضَبَنِي، فَخَرَجَ، فلم يَقُلْ عِنْدِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
لِلنَّاسِ: «انْظُرُوا أَيْنَ هُوَ؟»، فجاء فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ فِي
الْمَسْجِدِ رَاقِدٌ، فجاءه رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وهو مضطجعٌ، قد سَقَطَ
رِدَاؤُهُ عَنْ شِقِّهِ، فأصابه تَرَابٌ، فجعل رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُهُ
بِنَهْ، ويقولُ: «قُمْ أَبَا التَّرَابِ، قُمْ أَبَا التَّرَابِ»^(٢).

تأمل: الرَّجُلُ الَّذِي اخْتَارَهُ اللَّهُ لِيَكُونَ رَسُولَهُ إِلَى الثَّقَلَيْنِ،
وَيُنَزَّلُ عَلَيْهِ آخِرَ شَرَائِعِهِ: يَمْسَحُ التَّرَابَ عَنْ أَحَدِ صَحَابَتِهِ
وَيَقُولُ مَتَحَبِّبًا مَتَوَدِّدًا: «قُمْ أَبَا تَرَابٍ».

فَكَانَتْ هَذِهِ الْكُنْيَةُ الدَّافِتَةُ أَحَبَّ مَا يُمْكِنُ لِعَلِيٍّ ﷺ أَنْ
يَسْمَعَهُ، أَوْ أَنْ يُنَادِيَ بِهِ.



(١) رواه البخاري ومسلم.

هناك أمور لا يُتصورُ تعدُّدها؛ منها: الحبُّ؛ فالحبُّ فيضٌ لا يُتصورُ أن يكونَ متعدِّدَ الأقدار، ولكنَّ حبَّ النبي ﷺ يتعاضم مرةً، ويتعدَّد مرةً؛ فقد بعثه الله بالحب كما بعثه بالرحمة؛ قال عليه السلام لأحد أصحابه: «يا أبا يزيد، إني أُحبُّك حُبَّين: لقرايتك، ولحُبِّ عمِّي لك»^(١).



أتاه رَحُلٌ يُعلِنُ عن حبِّه لأحد المسلمين، فلم يكتفِ النبي ﷺ بالترييتِ على تلكِ المشاعر، بل أمره: «قُمْ، فأعلِمْه..»^(٢).

الحبُّ ثقافةٌ يجب أن تنتشر، ولغةٌ يجب أن تُدرَّسَ وأحاسيسٌ يجب أن تُبَثَّ في الحياة.

ويعبرُ عليه السلام عن حبِّه لزيد بن حارثة بطريقة مألَّها بالحنان والرحمة، فقال له ذاتَ يوم: «يا زيدُ، أنت مولاي، ومنِّي، وإليَّ، وأحبُّ القوم إليَّ»^(٣).

(١) قال عنه الذهبي روي من وجوه مرسلة.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

(٣) رواه أحمد والحاكم، وحسنه ابن حجر في الإصانة.

وكان يزد بمر بعينه على أولئك القوم ليتخايل القمة التي
وضعه عليها الرجل النبل ^{عليه السلام} لما قال له: «واجب القوم»!

وكما كان يصوغ الحب كلمات وقبلا، فقد صاغه بطريقة
نادرة تُجهش لها الحياة؛ فهذا سعد بن معاذ كان يُمرض من
جراحة أصابته، وقد أوشك على أن يبرأ، وقد باتت أجواء
المدينة مرتبكة، انتظارا لشفاء ذلك السيد العظيم.

وفجأة وبلا مقدمات، إذا بجبريل عليه السلام ينزل،
فيلقي النبي ^{صلى الله عليه وسلم} ويسأله: من هذا العبد الصالح الذي مات؟
فتحت له أبواب السماء، وتحرك له العرش..

فذهل النبي ^{صلى الله عليه وسلم}، وتذكر سعداء فهرع إلى خيمته، فإذا
بجرحه قد انفجر، ودماؤه تُثعب، فاعتنقه والدماؤه تتدفق على
وجهه الشريف ولحيته.. ومعاني الحزن العميق يقرؤها الكبار
والصغار على ملامح الرجل النبل.

فدخل أبو بكر الصديق ^{رضي الله عنه} في تلك اللحظة الرهيبة ورأى
ما رأى، فقال: وانكسار ظهره على سعد.. ثم دخل على أثره

(١) غير اهتزاز العرش لموت سعد في البخاري وغيره.

عمر رضي الله عنه، ورأى ما رأى، فقال بحنين تتكسر له الصخور
﴿إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١).

تقول عائشة رضي الله عنها: «ما كان أحدٌ أشدَّ فقداً على
المسلمين بعد النبي ﷺ وصاحبيه من سعد بن معاذ»^(٢)..

هذا هو النبي ﷺ، وهذا هو الحبُّ الذي زرعه وسقاه في
قلوب أصحابه، وهذا هو سعدٌ الذي ارتجَّتْ له المدينة، واهتزَّ
له قبل ذلك عرشُ الرحمن.

الحياة كالحة، وإذا لم نعالجها بشيءٍ من الحب ستُصيبنا بداء
الحشيم، فتفتت دون أن نشعر.

«قُمْ فَأَعْلِمْنِي»؛ حتى تغدو كلمة الحب هي السحابة التي
تظلل المدينة النبوية، فتَهْطِلُ أمطارٌ تُشبعُ الأشواق التي تطفئ
لهيبَ الصحراء من أرواح أرققها الجذب.

حتى بعد وفاته ﷺ بات الحبُّ ثقافة، وصارت المعاييرُ
النبوية للحب معلومة، فيستطيع الجميع أن يَعْلَمُوا ما الأشياءُ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد في فضائل الصحابة.

(٢) أخرجه ابن سعد، وأحمد في فضائل الصحابة.

التي لو كان النبي ﷺ حياً لأحبها!

ينظر ابن مسعود إلى الربيع بن خثيم، ذلك العابد الذي
يمشي في طرقات الحياة وكأنه يرى الجنة والنار في طريقه،
فيقول له ابن مسعود: يا أبا يزيد، لو رأك النبي ﷺ، لأحبك!
إن نفس الربيع من النفوس التي يحب النبي ﷺ خشوعها،
واخباتها، وضباغ الحياة في عينيها..

من النفوس التي تقرّر لدى الصحابة أنها محبوبة لدى
الرجل النبيل عليه الصلاة والسلام، الذي جعل للحب قوانين
يقفها صحابته جيّداً؛ لكثرة ما يُخبرهم عما يحبُّ، وعما ينبغي
أن يكون جيّلاً محبوباً لديهم..

❧ تباريح الشوق

يخرج النبي ﷺ ذات يوم ومعه من معه من صحابته، يخرج
قاصداً المقبرة، ذلك الصندوق المبهّم الذي يحوي أناساً دافعوا
عنه في يوم من الأيام، يحوي أناساً اعتنقوا دينه، وآمنوا بمبادئه،
وبذلوا أرواحهم لنصرة الحق، يأتيهم ليخصّصهم بدعاء عزّوج
بلهفة الشوق، وكان الشوق يذكرُّ بالشوق:

وَابْرَحْ مَا يَكُونُ الشَّوْقُ حِينَئِذٍ

إِذَا دَنَيْتَ الْحَيَّامُ مِنَ الْحَيَّامِ

فينظر إلى صحابته ويقول: «وَدِدْتُ أَنَا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا!»^(١)،
تَعْجَبُ الصَّحَابَةُ الَّذِينَ يَحِيطُونَ بِهِ، وَفِي اعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُمْ إِخْوَةٌ
لَهُ، فَقَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:
«أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانِي الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ».

إن ملامح وجهك، ونبرات صوتك، وجمال أحاديثك: مما
كان النبي ﷺ يتمنى أن لو رآها، وسمعها، وعاش معها.

هَذَا انْكَسَارٌ مَا فِي قَلْبِ الرَّجُلِ السَّيْلِ، انْكَسَارٌ شَوْقِي،
وَحِينَ خَاصٍ لَا يُمْكِنُ التَّعْيِيرُ عَنْهُ بِاللُّغَةِ، وَلَكِنْ زَفَرَاتُ
الشَّوْقِ هِيَ مَنْ تَعَبَّرُ عَنْهُ: «وَدِدْنَا أَنَا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا».

يَتَحَدَّثُ ذَاتَ شَوْقٍ وَشَيْءٌ أَقْدَسُ مِنَ الدَّمْعِ يُلَوِّحُ فِي
أَحْرَفِهِ: «مَنْ أَشَدُّ أُمْتِي لِي حُبًّا: نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ
أَحَدُهُمْ لَوْ رَأَى بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ»^(٢).

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

هل خطرَ ببالك أن هذا النبيَّ المهمومَ بدعوته، والمشغول
بأحداثِ زمنه الموار، والمنصرف لتدبير شؤون دولته: سيعبرُ
يومًا ما عن شوقه إليك؟

نعم شوقه إليك أنت أيها القارئ!

لقد كان النبي مشتاقًا إليك، حَدِّثْهُ عَلَيْكَ، يتمنى أن يراك،
وأن يجلس معك، وأن يحدثك حديثًا مليئًا بالحب.



أقوى من النسيان

«استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة
على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة
فارتاع لذلك»

عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها

السَّحَابُ الْمَرْفُوعُ

عائشة بنت أبي بكر

أقوى من النسيان

الحب لا يكتمل إلا بالوفاء، كثيرون هم الذين يُحِبُّون،
وقليل من يحتفظ بهذا الحب، ويحمي حماه، ويسقيه نُبْلاً
ومروءةً ووفاءً.

كان عليه السلام محباً، ولكن لا يمكن أن يُحِبَّ، ثم يَنسى حبه
سهولة، فإن كان الحبُّ هو الحلقة الأولى من سلسلة المشاعر،
فإن الوفاء هو الحلقة الأخيرة، والأبدية من هذه السلسلة.

❦ أولاً وثانياً وثالثاً..

يُحَدِّث بين أبي بكر الصديق رضي الله عنه وعمر بن الخطاب رضي الله عنه ما
يُحَدِّث بين الأصحاب، مُلاحاة، أو ما تُسمُّيه نحن (مُشكلة)،
تجعل عمر يذهب إلى النبي ﷺ ليَشْكُوَ أبا بكر، فعندما جاء
أبو بكر رأى أمارات الغضب على وجه النبي ﷺ فخاف على
صاحبه فقال: يا رسول الله، والله أنا كنتُ أظلم! فاعترف أبو
بكر بأنَّ الحقَّ مع عمر في هذه القضية، فدَعَا ننظر ماذا فعل
الوفاء.

لقد تزايد شعور الغضب في نفس النبي ﷺ، وأرسل خطاباً
يَسْمَعُهُ الجميع، وَيَفْهَمُهُ الجميع: عمر وغير عمر - رضوان الله
عنهم أجمعين - فقال: «هل أنتم تاركون لي صاحبي؟»^(١).

هذا أقرب الناس إلى قلبي، هذا الذي استأثرت به بحبي
وشوقي وحنيني، هذا الذي كنتُ أمشي في أزقة مكة، رجلاً
تُطارِدني الأنظمة، كل مَنْ يقترب مني يَغْدُو مطلوباً، أو
محكوماً عليه بالإعدام، أو بالسجن، أو بتشويه السمعة،
فابتعد لذلك عني الأقربون، ولكنَّ أبا بكر في تلك الأثناء،
وفي تلك الظروف الحالكة اقترب مني، وأبى أن يترعَّ يده من
يدي، مُتَحَمِّلاً سُخْرِيَةَ أبي جهل، ولسان أبي لهب، وتسلُّط
أمية بن خلف، ومُضايقة عتبة بن ربيعة.

«هل أنتم تاركون لي صاحبي؟»

صَدَّقَنِي حين كَذَّبَنِي النَّاسُ، وآواني حين طَرَدَنِي النَّاسُ..

لم ينسَ النبي ﷺ بعد سنوات وسنوات تلك القدم التي
أدخلها أبو بكر يوم الهجرة في جُحر العقرب، حتى يمنع
العقرب أن تصل إلى النبي ﷺ! لم ينسَ أيام مكة الساخنة

(١) رواه البخاري.

جدًا، وكيف أن أبا بكر كان يقف بينه وبين سياط السخرية
القرشية!

فيُجيب عنه، ويدافع عنه، ويقول بكل شموخ: إن قالها
فقد صدق.

لم ينس النبي ﷺ ذلك التاريخ الأبيض الناصع؛ لذلك فلم
يتأمل حَيثِيَّات الخلاف بين أبي بكر وعمر، بل دعا عمر ودعا
جميع الصحابة للنظر إلى تاريخ الأشخاص، وسابقة الأقوام،
وَأَلَّا يَنْسُوا الحُبَّ بينهم.

ماذا تعني في هذا السياق مشكلة عابرة يا عمر، تكون
بينك وبين أبي بكر؟ أنسيْتَ أبا بكر؟ أنسيْتَ مَنْ هو أبو بكر؟
أنسيْتَ السنوات التي لم يكن في سجل الإسلام غير أبي بكر؟
إذن فلتحترق جميع المشاكل، ولتتهشم جميع القضايا، ويبقى
أبو بكر أولاً.. وثانياً.. وثالثاً.

﴿ عَرَفْنَا الحَزْنَ ﴾

ويظهر الوفاء أيضًا عند لحظات الوداع الأخيرة، لما يُفارق
الصديق صديقه، وينخلع المحبُّ عن جزء من رُوحه، عندما
يتيقن أن لا لقاء سيكون بينه وبين حبيبهِ.

تقول عائشة رضي الله عنها: لما جاءت وفاة جعفر عرفنا الحزن في وجه النبي ﷺ ^(١).

جعفر ابن عم النبي ﷺ، والذي كانت فرحة النبي بعودته من الحبشة مساوية، أو مقاربة لفرحه بفتح خير، فكيف سيمرُّ نبأ وفاته على قلب النبي ﷺ، وكيف سيستطيع أن يتجاوز الخطب بلا شيء من الدموع، وشيء من الحزن، وشيء من الشوق الميَّض؟

❧ صفح الجبل

وهذا حمزة، ذلك الأسد الذي أسلم قبات ضعفاء المسلمين بعد إسلامه في منعة وقوة، كيف للوقي أن يُعبر عن لحظات فراقه؟

كان يمشي بين قتلى أحد، ونزيف في أعماق نقطة من فؤاده يعصف به، فرأى من بين الجموع حبيبته حمزة، فبدأت دموعه تشقُّ طريقها بصمت، وقدماه تتجهان صوب صديق الطفولة، فلما وقف أمام ذلك الجسد الطاهر، ورأى ما فعله وحشيُّ بجثة حمزة: شهق.

(١) رواه أحمد، وصححه شعيب الأرنؤوط.

لم يستطع أن يكون هادئاً ﷺ في مقابل ما تفعله الموسى
الموحشة بأجل ما في الكون من نبل.

وفي طريق العودة من المعركة، ما إن دخل النبي ﷺ المدينة
حتى سمع ساء الأنصار يندبن ويكيّن هلكاهن، فتذكر
حمزة، تذكر الدم والقراية، تذكر التاريخ الصاع، والذكريات
الشامخة، تذكر صوته الأجش، تذكر شجاعته وإقدامه، تذكر
الدفء الذي يشعر به، إذ كان بقربه، ولا أحد يسكي عليه!
وكان قدراً عطيماً من الحسرة، أو كأنها عاصفة حزن نبيل
غضبت نفسه عندما قال: «لكن حمزة لا يواكبي له!»^(١)

حتى في البكاء يظهر وفاء هذا النبيل العظيم.

ونمر الأيام والليالي، فتظهر في محلة النبي ﷺ تلك الأوجه
المشرقة، أوجه أولئك الذين استشهدوا عند جبل أحد، وجه
حمزة ومن معه من رفاق الأمس، فيقول بحسرة لا تُذبلها الأيام:
«أنا والله لو ددْتُ أني عُودِرْتُ مع أصحاب (سَفْح) الجبل»^(٢)

(١) رواه أحمد، وصححه شاكر

(٢) رواه أحمد، وحسنه شعيب، ونص الحديث «نُحَص الجبل» وقد أتيت بالمعنى
الذي ذكره العلماء، ليفهمه القارئ

يَتَمَنَّى أَنَّهُ قَضَى نَحْبَهُ مَعَ أَحِبَّائِهِ، يَتَمَنَّى أَنَّهُ مَاتَ مَعَ حِمْرَةٍ.

❧ اللَّهُمَّ هَالِكُ

الفراق في الحياة حتم لا بد منه، وقد فارق النبي ﷺ أَحَبُّ
الناس إليه، خديجة بنت خويلد ؓ تلك الرائعة التي ضحّت
من أجل حبيبها، ونصرت بهالها، وب عقلها، وب حكمتها، وكانت
معه في أحلك الظروف.

ليست المشكلة في الفقد، المشكلة تكمن فيما بعد الفقد!
عندما تندمل الجروح، وتنسى الروح شيئاً من التفاصيل،
ثم فجأة وبلا مقدمات يعود ذلك الراحل بتفاصيله، يعود
بصوته، وبإحساسك تجاهه، هنا لا تسأل عن الرُّوع الذي
يَدْمُكَ.

جاءت هالة بنت خويلد أخت خديجة ؓ إلى المدينة،
والنبي ﷺ قد شغلته الدولة التي أرسى دعائمها، والأحداث
التي خاض غمارها، والمعارك التي قاد كتابتها عن أن يتفقد
خديجة في خلجات نفسه، لقد خفت شيء من حدة الذكرى..
وفجأة تأتي هالة، وتستأذن عليه، فيسمع صوتها، تقول عائشة
ؓ: «استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول

الله ﷻ، فعرف استئذان خديجة (تذكر مخارج حروفها..
 وتذكر الأيام) فارتاع لذلك، فقال: «اللَّهُمَّ هَالَةً»^(١) سال الله
 أن يكون الصوت صوت هالة أخت خديجة! يريد أن يُرمم
 شيئاً من الذكريات في نفسه، يُريد أن يُكرم أخت حبيته، وأن
 يُعيد بشيء من الحديث معها شيئاً من الماضي الذي ذهب مع
 خديجة.

إنَّها قطعة وفاء نادرة، وتُحفة أخاذة لأصالة المعدن، والتي
 جعلت هذا السيل يرتاع لصوت امرأة ذكَّرتَه دفء الأيام
 الأولى.

❦ نهش الرماح

ومن صور وفائه ﷺ أَنَّهُ لم يسمح للنسيان أن يمحوَ أوجه
 أولئك الذين أحاطوه بحبِّهم، واتباعهم، وجاهدوا معه،
 ودافعوا عنه.

أولئك الذين تُسفيهم بالصحابية، والذين بانت أهم
 صفاتهم أَنَّهُم صحبوا الرجل النبيل، وكانوا معه في منشطهم

(١) أصله لي الصحيحين.

ومكرهم، هؤلاء الذين أعزَّ الله بهم دينه، وأعلى بهم كلمته، فلم ينسهم النبي ﷺ، ولم يتركهم للتاريخ ليفعل بهم وبسيرهم ما يشاء، بل شدد على فضلهم، وأحقبتهم للحب والاحترام.

وكأنه عليم ﷺ بتعليم الله له أن نابتة كاذبة خاطئة ستأتي في هذه الأزمنة ونسب معاوية، وتقلل من قدر خالد، وتتهم عائشة في عرضها، وعمر في عدله، وأبا هريرة في دينه! على صحابة النبي ﷺ رضوان الله، وعلى هؤلاء ما يستحقون.

يقول الوفي في صحابته: «لا تسبوا أصحابي»^(١)

ألا تكفي الرماح التي نهشت أجسادهم من أجل لا إله إلا الله؟ ألا تكفي الهجرة التي برحت بأفئدتهم من أجل هذا الدين.. ثم يأتي منكى على أريكته يكذب على كاتب الوحي؟ أو على الصديقة بنت الصديق؟

ثم يقول - وكأنه أراد أن يقشع غمامة الغباء عن بعض الرؤوس - : «احفظوني في أصحابي»^(٢).

إذن فقد جعل الوفي حفظهم من حفظه، وإجلالهم من

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه ابن عساکر.

إحلاله، إذ كيف يَقل لك الدين من لا تُجلُّه، ويأتيك بهدي
السي وسيرته وسُسته من ترعُم أنت أنه كذاب!

ويقول ذات وفاء مادر، وكأنه يقف بين جموع الشَّامين
أولئك الدين لم يتطهَّروا من السفاق، وبين صحابتهم الكرام:
«دَعُوا لي أصحابي»^(١).

اتركوهم لي، فانا أولى الناس بهم، وانصرفوا أنتم لغشكم،
وكذبكم، وفجوركم.

من وُشِّيء المشاهمة

وفاء لله لم يكن لأصحابه، وأحبابه، وأولئك الذين
جمعتهم معه أجمل الذكريات، وأحلى الأيام.

بل حتى أولئك الذين كذبوا بدينه، وردُّوا دَعوته، ممَّن كانت
لهم مواقف رُجوليَّة بَحْته، فقد حَفِظَ عهدهم، ووفَّى بتلك
المواقف.

فها هو واقف إزاء أسرى بدر، أولئك الذين خرجوا من
مَكَّة لحرب الدين، وإحراق الرسالة، وكسر راية الحق، فيتذكَّر

(١) رواه البرار.

المُطِيعُ بن عَدِيٍّ ذلك الرجل الذي أجاره عندما عاد من
الطائف وحيداً طريداً، ذلك الرجل الذي سجّل موقفاً شهياً
ضدّ قومه الظلمة أيام الشُّعب، ومزّقت يده صحيفة الجور،
تذكّره وهو ينظر إلى أولئك الأوباش ثم قال لابنه الجبّير: «لو
كان أبوك حياً ثم كلّمني في هؤلاء لأطلقتهم له».

إنّه وفاء للشهامة، وتذكّر لعهد الرجولة، وعدم إنكار
لجميل رجل مات على الكفر!

والآن أخبرني هل في سيرة هذا العظيم مُتَّسِعٌ لغير الشهامة؟
وهل هناك جزء في شخصيّته لم يتضمّنْ بعطر وفائه عليه
الصلاة والسلام؟ وهل هناك نفس في هذا الوجود، يستطيع
أن يفعل بها الوفاء ما فعل في نفس أعظم إنسان، وأنقى إنسان،
وأنبل إنسان؟ عليه من الله أزكى الصلاة والسلام..



احمرار البأس

كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَاسُ، وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ:
اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ

علي بن أبي طالب عليه السلام

الْحَمْدُ لِلَّهِ

خيار

احمرار البأس

كان السيِّدُ عليه السلام عنوانَ الشجاعة والإقدام، بل لقد كانت عيابه فقط تدرّسانِ الشجاعةَ لأشاوسِ الصحابة، وأكابر المسلمين.

حتى إن صايدَ الكفر كانوا يتحامون ويتحاشون أن نظروا مدّةً مشاكسته؛ لأهم يعلمون عن أيِّ أسيدٍ سيُسِيرُ ذلك الاستمرارُ، وعن أيِّ عَصَبٍ سينجلي عِبارُ الموقف!

فهو شجاعُ الكلمة، شجاعُ الرأي، شجاعُ الموقف، وشجاعُ المعركة.. بل هو شجاع في جِلْمه، وفي تواضعه، وفي كلِّ أحلاقه؛ يقول عنه خالقه سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

فمن أيِّ بابٍ تَدْلِفُ إلى سيرته عليه الصلاة والسلام، ستَلْقَى شجاعته وكأنها السُّمّةُ البارزة، والتوقيعُ الهائي على مواقفه التي صنعت سيرته العظمى، وأيامه المملأى بالذكريات.

❧ وَيُدْخِلُكَ النَّارَ

مُلِيَ قَلْبُ النَّبِيِّ ﷺ بِالْبَسَالَةِ؛ فَلَا تَرَوْعُهُ الْأَحْدَاثُ الْجِسَامِ،
وَلَا تُنْهِنُهُ الْمَوَاقِفُ الصَّعْبَةُ، بَلْ تَرَاهُ فِي كُلِّ أَحَايِنَةٍ جَبَلًا شَاخًا
لَا تُعْسُ ذُرَاهُ بِسُوءٍ.

كَانَ يَوْمًا يَسِيرُ فِي مَكَّةَ، فَتَلَقَّاهُ أَبِيُّ بْنُ خَلْفٍ، وَهُوَ أَحَدُ
فِرَاعَةِ الْكُفْرِ، وَمِنْ يُهَابِ جَانِبِهِمْ كَثِيرًا.

مَشْكَلَةٌ إِنْ كَانَ خَصْمُكَ رَجُلًا هُوَ أَحَدُ مَقْتَرَحَاتِ الْكُفْرِ،
ثُمَّ نَقَذَنهُ الدَّنَاءَةُ بِشَكْلِ عَشْوَانِي!

تَلَقَّاهُ هَذَا الرَّجُلُ ذُو الْأَخْلَاقِ الشَّرْسَةِ بِعَظَمِ حَائِلٍ، فَفَتَّهَ بَيْنَ
يَدَيْهِ، ثُمَّ سَأَلَهُ بِكَيْفٍ وَغَطْرَسَةٍ: أَتَرَى رَبَّكَ يُجِيبِي هَذَا بَعْدَ مَا قَدْ أَرَمَ؟

شَخَّصَتْ الْأَبْصَارُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَتَظَرُ كَيْفٍ يَجِيبُ هَذَا
الشَّيْخَ الْمَطَاعَ أَبِيَّ بْنَ خَلْفٍ، فَإِذَا بِهِ يَقُولُ، وَبِلاَ اِهْتِمَامٍ لِمَكَانَتِهِ
فِي قَوْمِهِ: «نَعَمْ! وَبِيعْثُكَ، وَيُدْخِلُكَ النَّارَ».

لَقَدْ دَامَسَ النَّبِيُّ ﷺ بِكَلِمَتِهِ تِلْكَ عِزَّيْنِ الْكُفْرِ، وَمَرَّغَهُ فِي
الطِّينِ كَمَا يَجِبُ، دُونَ أَنْ يَضْرِبَ حَسَابًا لِهَذَا الْمُتَكَبِّرِ الَّذِي لَا
يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ.

يتحدث أهل السير: أن النبي ﷺ أقبل ذات يوم يطوف بالبيت، فابتدره المستهزون؛ هذا يغمز، وذاك يقهقه، والنبي ﷺ كعادته يحلم بهم، ويتغاضى، وكأنه ما رأى وما سمع، ولكن يبدو أن الأمر تجاوز حدّه، وبات التأخر في الرد يعطي انطباعاً بالخوف أكثر منه بالحلم، فتوقف النبي ﷺ عند جمعهم، فصمتموا لوقوفه قبل أن يتكلم، ثم قال ثلاث كلمات طاشت معها فقهائهم، قال: «لقد جئتكم بالذبح!».

فقط هذه الكلمات جعلتهم يقومون ويتوسلون إليه أن يتجاوز عنهم، فما عهدوه إلا الحليم الرشيد.

لقد علموا جيداً أنه لا يقول إلا الحق، وأنه إن قال: «لقد جئتكم بالذبح»، فإن الذبح هو مصيرهم، وهو ما حدث بالفعل يوم بدر!

يعلمنا النبي الكريم ﷺ أن الشجاعة ليست كلاماً طائشاً تلقى على عواهنه، وتهديداً أجوف لا طائل وراءه.. إن الشجاعة هي أن تملك نفسك ما استطعت، ثم إن أبى

(١) ابن حبان في صحيحه

نَحْنُكَ إِلَّا اسْتِصَالَ بَاطِلُهُ، وَجَاءَ وَقْتُ الْكَلَامِ: فَلَا
تَتَحَدَّثُ إِلَّا بِحَدِيثٍ يَعْلَمُ صَاحِبُكَ أَنَّكَ تَعْنِي كُلَّ حَرْفٍ مِنْهُ،
وَأَنَّكَ لَا تَهْدُدُ بِقَدْرِ كَوْنِكَ تَسْلُمُهُ خَطَّتِكَ لَا اسْتِصَالَ شَافَتِهِ،
وَتُعْطِيهِ فِكْرَةً وَاضِحَةً عَمَّا سَتَفْعَلُهُ مَعَهُ فِي الْغَدِ.

❧ لَمْ تُرَاعُوا..

لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ يَخْتَبِئُ خَلْفَ الْجُمُوعِ، وَيَقِفُ مِنْ وَرَاءِ
الْفُرْسَانِ، بَلْ كَانَ الْمَتَقَدِّمُ دَائِمًا..

يَحْدُثُنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ (رضي الله عنه): أَنَّ صَوْتًا غَرِيبًا جَاءَ مِنْ إِحْدَى
جِهَاتِ الْمَدِينَةِ، وَقَدْ كَانَتْ الْمَدِينَةُ نَقْطَةً النُّورِ فِي بَحْرِ مِنَ الْقَبَائِلِ
الْمُشْرِكَةِ، وَجُمُوعٍ مِنَ الْأَعْرَابِ الْغِلَاطِ، وَكَانَتْ التَّهْدِيدَاتُ
تَأْتِيهَا مِنْ مَكَّةَ، وَمِنَ الطَّائِفِ، وَمِنَ الرُّومِ، وَمِنَ الْفُرْسِ..
وَقَدْ كَانَتْ حَيَاةُ الْمَدِينَةِ حَيَاةَ تَعْبَةٍ وَجَاهِزِيَّةٍ لِأَيِّ مَدَاهِمَةٍ قَدْ
تَغْزُوا أَطْرَافَهَا.

فَلَعَلَّ النَّاسَ وَالْحَالَ كَمَا ذَكَرْنَا ظَنُّوا ذَلِكَ الصَّوْتَ صَوْتَ
بَعْضِ فُرْسَانِ الْعَدُوِّ الْمُقْبِلِينَ عَلَى الْمَدِينَةِ غَزَاةً مُعْتَدِينَ، فَفَزِعَ
مَنْ فَزِعَ، وَأَخَذَ الْفُرْسَانُ يَهْتَفُ بِبَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، وَيَسْتَحِثُّ
بِبَعْضِهِمْ بِبَعْضًا.. وَقَدْ سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ مَا سَمِعَ النَّاسُ، فَلَمْ

يَنتَظِرُ كَمَا يَنتَظِرُ النَّاسُ، بَلْ هُرِّعَ إِلَى فَرَسٍ عَزِيٍّ بَلَا سَرْجٍ لِأَبِي
طَلْحَةَ، وَانْطَلَقَ كَالْعَاصِفَةِ جِهَةَ الصَّوْتِ وَحْدَهُ، يَسْتَكْشِفُ
وَيَبْحَثُ عَنِ أَوْلَتِكَ الْمَسْلُوكِينَ بِسَالَةِ الْفَارَسِ، وَشَجَاعَةِ
الْقَلْبِ الَّذِي لَا يَنْبِضُ بِالْخَوْفِ.

لَقَدْ كَانَ قَلْبًا شَجَاعًا، وَنَفْسًا تَعَصِفُ، وَشَرَرًا يَتَّقِدُ..

وَفِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ، تَجَمَّعَ عَدَدٌ لَا بَأْسَ بِهِ مِنْ فُرْسَانِ الْمَدِينَةِ،
وَاطْلُقُوا حِجَةَ الصَّوْتِ، فَإِذَا النَّبِيُّ ﷺ يُقْبِلُ عَلَيْهِمْ بِوَجْهِهِ
الرَّضَّاحِ، وَتَغْرَهُ الْمَتَبِّسُّمُ، وَقَدْ أَهَى مَهْمَةً الْاِسْتِكْشَافِ وَهُوَ
يَقُولُ: «لَمْ تُرَاعُوا.. لَمْ تُرَاعُوا!!»^(١)

لَا خَوْفَ عَلَى الْمَدِينَةِ وَمُحَمَّدٌ ﷺ فِيهَا، حَتَّى فُرْسَانُ الْمَدِينَةِ
الْأَشَاوِسُ يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِيَكُونَ فِي
مَقْدَمَتِهِمْ فِي أُمُورِ الْهَلَعِ وَالرَّعْبِ.

إِنْ خُصُّلَاتِ شَعْرِهِ الْمَتَنَازِرَةِ وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ أَبِي طَلْحَةَ
لَتُوحِي لِلنَّازِرِ مِنْ بَعِيدٍ أَنَّ الْبَطُولَةَ بَدَأَ مَوْسِمَهَا، وَأَنَّ شَيْئًا
مِنَ التَّفَوُّقِ الْبَشَرِيِّ الَّذِي لَا تُطِيقُهُ إِلَّا نَفْسٌ صَنَعَهَا اللَّهُ لَهُ،

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

واصطفاهما لتبليغ رسالته: قد ظهرَ على الكوكب، وأخذ يشعُّ
بإشعاع لم يفهمه الكوكبُ بعداً!

❧ احمرارُ البأس

كان عليُّ بن أبي طالب عليه السلام من أعظمِ مَنْ عُرِفَ بالشجاعة
والإقدام، وكان أحدَ فرسانِ يومِ بدرِ الثلاثة، الذين لاقوا
فرسانَ قريشِ الأقوياء، ففلقَ هامةَ صاحبه، وأرداه قتيلاً،
وهو بعدُ شابٌّ طريرٌ، وقتى بخوض في فتوته.

يقول هذا السيفُ الصَّلْتُ: «كُنَّا إذا احمرَّ البأسُ، ولقي
القومُ القومَ: اتَّقينا برسولِ الله ﷺ»^(١).

أَتَحْيَلَتِ البأسُ كيف يحمرُّ؟

وما هو الذي يجعله أحمرَّ اللون؟

إنها الدماءُ التي تتطاير من الأعناق، والأشلاء التي تتبعثر
في الأجواء..

عند تلك اللحظاتِ الحاسمة، تغدو شجاعةُ عليِّ بن أبي
طالب، وطلحة، والزبير، وحمزة، وأبي دُجَّانة: شيئاً متواضعاً

(١) رواه أحمد، وصححه شاكر.

عد شجاعة النبي ﷺ ..

يقول: اتقينا برسول الله ﷺ؛ أي: جعلناه بيننا وبين الموت..
بيننا وبين صليل السيوف!

لقد كان عليه الصلاة والسلام الشجاعة في وقت كانت
الشجاعة صنًا يكاد يُعبد من دون الله؛ فنكس رأس الشجاعة
لله، وجعلها راهبًا متبتلًا في عراب التواضع للخالق العظيم.

❧ الآن حمي الوطيس

ولا تتجلى الشجاعة إلا في مواقف الخوف العظمى،
وأشدّها بأسًا لَمَّا تشتجرُ الرماح، وتنهلُ السيوفُ من الدم،
عندها تظهر معادنُ القلوب، وأصنافُ البسالة، ولا يصمدُ في
مثل هذه المواطن إلا مَنْ ختمته الشجاعةُ بخاتمها ذي النقشِ
الدمويِّ المَهُول!

في غزوة حُنين التي ذكرها الله في القرآن الكريم، فقال تعالى:
﴿وَبِیَوْمٍ حُنَیْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ
شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ
مُذَرِّبًا﴾، كان عددُ جيشِ النبي ﷺ اثني عشر ألفًا.. وهو
عددٌ لم يجتمع للجيش الإسلامي قبل ذلك، مما حدا ببعض

المسلمين أن يقولوا: لن نُهْزَمَ اليوم من قِلَّةٍ^(١).

وما إن التحمت الصفوف، حتى ظهرت سيوفُ هوازن،
ورماحُ ثقيفٍ بالموت الزُّوَام؛ فطاشت الصفوفُ، وغصَّت
الأوديةُ بالهاريين!

حتى شجعانُ الصحابة، وأولو الحماسة منهم والحفظة،
انشقروا وولَّوا كما وصفهم الله تعالى: ﴿مُذِيرِينَ﴾، والله - في
تقدير ذلك الهلع المفاجئ على قلوب كالحديد بأمنًا - حكمة
بالغة!

فأين كان النبي ﷺ في هذا السياق المخيف؟

يقول أصحابُ السير: كان يصرُخُ وهو في حومة الموت
ووسطُ بُحَيحة المعركة: هلمُّوا إليَّ أيها الناس، أنا رسول الله،
أنا محمد بن عبد الله!

لم يعطِ الموتَ ظَهْرَهُ عليه الصلاة والسلام، بل أقبل إليه
بصدره الممتلئ ثقةً بما عند الله، وماذا يعني الموتُ عند رجلٍ
إحدى أمانيه الموت؟!

«والذي نفسي بيده، وِدِدْتُ أني أقاتِلُ في سبيل الله فأُقْتَلَ،

(١) قصة غزوة حنين بتفاصيلها في مسلم، وغيره.

ثم أحياء ثم أقتل، ثم أحياء ثم أقتل، ثم أحياء
ثم أقتل.

فصرخ العباسُ عليه السلام: «أين أصحابُ الشجرة؟ أين الأنصار؟ أين بنو الحارث بن الخزرج...»، فانتفضت الحماسةُ في قلوبهم من جديد، واعدوا إلى قلب المعركة والجنة تراءى لهم، يقول العباسُ: «والله، لكان عطفَتهم لما سمعوا صوتي عطفَةُ البقرِ على أولادها»، وأخذوا يهتفون: يا لبيك.. يا لبيك! فلا ثقيف ولا هوازن ولا الموت يستطيع أن يتغلبَ على الأشياء التي يشعرُ بها أصحابُ محمد بجوار محمد.

فلما رأى النبي ﷺ المعركة احتدمت، والنَّعْ يَعِيدُ تشكيلَ
صورة الموقف، قال: «الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ»، وابتدأ بقتالٍ
ليس كالقتال، وباستبسال ليس كالاستبسال، وبضَرْبٍ يَفْلِقُ
الهَامَ، وأخذت تنداح أرتالُ أصحابِ بَيْعَةِ الرضوان لتنهى
أسطورة الشرك، وسقطت أكذوبةُ الجيش الذي لا يُقْهَرُ..
وهرب الأندالُ إلى نخلة، والطائف، وأوطاس، فستبعمهم النبيُّ
بسرائاه، وأجهز على تلك الوجوه التي عليها غَبْرَةٌ، ترهقها
فَتْرَةٌ!

إنه محمدٌ، إنه الرجلُ الأشجعُ؛ فلا تتحدثْ عن الشجاعة
وأنت لا تنوي أن تذكره.. ولا تخُض في البسالة وفي نيتك أن
تُغفل مغازيه: بدر وأحد والخندق وفتح مكة وحنين...



الجزء المقدس

ما يُسهرُك يا رسول الله؟

صحابي جليل

السَّخَاةُ النَّبِيُّ

عَلَى حِرَافَتِهِ

الجزء المقدس

عندما تقرأ عن شجاع ما، أرهب أعداءه، وأسكن القلق في أحلام خصومه، وكيف أن طرقات الخوف لا تزور قلبه، وأن خفقات الذعر ليست ضمن قاموسه، عند ذلك يصعب عليك أن تتمثله رحيماً، يعتصر فؤاده ألماً لموت طفل، وتدمع عينه لا احتراق أمل، وتذهب نفسه حشرات على الدُّ خصومه.

ولكنك بحاجة لقراءة سيرة النبي محمد ﷺ حتى تلتقي مع هذا الشخص الأوحى الذي جمع أرفع درجات الشجاعة، وأبلى معاني الرحمة في قلبه الشاسع الممتد.

لقد حصر القرآن الكريم، وقصر سبب إرساله ﷺ في الرحمة، وكأنه لم يُخلق من تراب، وإنما خلق من رحمة، وفي رحمة، وإلى رحمة، يقول الحق عنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ١، ليس رحمة لزوجته وأبنائه وجيرانه، ليس رحمة لصحابته، هو رحمة للعالمين! والعالمون جمع عالم، وكل ما سوى الله عالم.

﴿ رُدُّوا إِلَيْهَا وَلَدَهَا ﴾

يُحَدِّثُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّهُمْ كَانُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي أَحَدِ أَسْفَارِهِ، وَأَنَّهُ ﷺ ذَهَبَ فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ، فَلَقِيَ الصَّحَابَةَ (حُمْرَةً) ^(١).. وَمَعَهَا فَرْخَانِ، يَقُولُ: فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءَتِ الْحُمْرَةُ، فَجَعَلَتْ تَضْطَرِبُ قَلْقًا وَخَوْفًا عَلَى صِغَارِهَا، فَانْتَصَرَفَ الصَّحَابَةُ فِي تِلْكَ الدَّقَائِقِ إِلَى شَيْءٍ مِنَ اللُّهُو الْبَرِيِّ، أَرَادُوا تَأْمُلَ الْفَرْخَيْنِ الْجَمِيلَيْنِ، وَالْأَنْسَ بِإِمْسَاكِهِمَا، وَسِمَاعِ صَفِيرِهِمَا، وَلَمْ يَكُنْ حَالُ الْأُمِّ الْمَسْكِينَةِ ضَمِنَ اهْتِمَامِهِمْ؛ وَلَكِنَّ نَبِيَّ الرَّحْمَةِ أَقْبَلَ، أَقْبَلَ بِقَلْبِهِ الَّذِي يَتَحَسَّسُ أَدْقَ تَفَاصِيلِ الْحُزْنِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ حَوْلِهِ، وَكَأَنَّهُ بُعِثَ فِيمَا بُعِثَ لَهُ؛ لِيَمْسَحَ الدَّمُوعَ وَيُسْكِنَ الْآهَاتِ ﷺ فَإِذَا بِمَنْظَرِ تِلْكَ الْأُمِّ الْمَفْزُودَةِ عَلَى صِغَارِهَا يَتَصَدَّرُ الْمَشْهَدُ، بَلْ يَجْعَلُهُ لَا يَعْبا بِأَيِّ مَرَحٍ جَمِيلٍ، أَوْ لُهو بَرِيٍّ الْقَضِيَّةِ الْآنَ تَتَعَلَّقُ بِقَلْبٍ يَحْتَرِقُ، وَلَا بَدَّ مِنْ سُرْعَةِ التَّدْخُلِ، فَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ بِكُلِّ صَرَامَةٍ: «مَنْ فَجَّعَ هَذِهِ بَوْلَدَهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا».

فِيَسَارِعُ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ إِلَى تَنْفِيزِ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَتَعُودُ

(١) نوع من أنواع الطيور.

المناءة إلى حياة تلك الحُمْرة، فتهدأ نفس النبي الأرحم عليه
الصلاة والسلام".

﴿ اعْلَمْ أبا مسعود

يمشي النبي ﷺ في سِكَك المدينة، فإذا بصوت ضربة سوط
تسلل إلى أذنه!

إنَّه الصحابي الجليل أبو مسعود، يضرب عبدًا له، فتُصيب
تلك الضربات رُوح النبي الرحيم ﷺ أكثر من إصابتها لظهر
ذلك المملوك المظلوم.. فيقول نبيُّ الرحمة، بقلب يتفطر:

«اعْلَمْ أبا مسعود..».

فلم يتبيّن أبو مسعود الصوت من شدة غضبه، فيقترب
النبي ﷺ ويكرّر: اعْلَمْ أبا مسعود..

فيستفيض أبو مسعود للصوت، فيلتفت ويده ما زالت
ملطّخة بآلم ضربة الظلم، فإذا بالنبي وراءه يقول:

(١) رواه أبو داود.

«اعلمَ أبا مسعود، لله أقدرُ عليك منك عليه!»

فيسقط السوط من كفِّ أبي مسعود، ويدوب الظلم في نفسه، وتحتنط الكلمات..

فيقول أبو مسعود لملوكه: «اذهَبْ فَأَنْتَ حرٌّ لوجه الله».

هكذا يُطفئ أبو مسعود غضب النبي ﷺ أعتق العبد لوجه الله.

فأتى التوقيع النبوي على المشهد: «أما لو لم تفعل، لَلْفَحْكَ النَّارُ»^(١).

لو لم تعتقه، وتهب له الحرية التي تحول بينه وبين أن يضرب ظلماً، لتحولت تلك السياط التي لفحته بها، إلى نيران تَلْفَحُكَ في الآخرة.

لم يأت النبي ﷺ ليعالج أمراض وخُرافات الجاهليَّة، ثم يدع تلك الأوهام والخُرافات تسكن قلوب أصحابه.. وتجعل نظرتهم للحياة تُسَمُّ بالتسلُّط والتجهُّم، بل كان حريصاً على

أن يُصقل إنسانية مَنْ حوله، ويُعيد تلك الأجزاء المقدسة التي سقطت منهم أيام جاهليّتهم.. يُعيدّها ليكتمل بهاؤهم، فالإنسان بلا رحمة، شجرة بلا ظل، ولا ثمر، ولا أوراق.

❧ أنين العباس

في طريق العودة من غزوة بدر، وقد رُبط الأسرى بالقيد، وشُدّد عليهم الوثاق! فتوقّف الجيش المظفر بقيادة الزعيم الأعظم حتى يناموا.

لاحظ الصحابة الكرام أن نبيّهم لم يَنم، مع أنّها ليلة مليئة بالسعادة، ليلة كان صُبّحها عزّاً للإسلام، فما الذي أسهر النبي ﷺ؟ تَجَرَّؤوا فسألوه، ما يُسهرُكَ يا نبي الله؟ فجاءت الصدمة: "أنينُ العباس".

ما حجم الإنسانية في ذلك القلب الذي أرّقه أنين أسير في القيد؟ فذهب الصحابة وأرّخوا من قيد العباس، لينام أرحم الناس.

إنّها النفس التي لا تَنسى وهي في خضمّ القوّة نسائم الرحمة النبيلة، وتقدّر على أن تتجهّم للكفر، وتبتسم في نفس اللحظة

للإيمان، ولديها إمكانية أن تصرخ في وجه أبي جهل، ثم
لا نستطيع النوم لأجل ابن العباس.

❧ غابة عسافير

في كل معركة بين جيشين تحترق حديقة أزهار، وروضة
أطفال، وغابة عسافير.. إلا إذا كان المقاتل هو الرجل النبيل!
حتى المارك يدخلها بنفسية الشهم الذي لا يسمح لقطرة
دم بريئة أن تُسب على سَجَّادة معاركه الفاخرة!

«لا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا، وَلَا طِفْلًا، وَلَا امْرَأَةً...»^(١).

لا تسمحوا للرغبة الجامحة في الانتصار أن تخبئ نُظَرَات
طفل بريء، لا ذنب له فيها يجري.

لا تسمحوا لأدخنة المعركة أن تعبث بتفاصيل وجه
امراة، فتعدونها ضمن الرجال، وتُنْهِوا حياتها بضربة لا
تليق بضعف أنثى!

(١) رواه أبو داود.

لا تعملوا الحرب تحرق فيها تحرق شعوركم بضعف ذلك
المسكين المتوكل على عكازه، والذي لا قدرة لديه على حمل
سيف، أو رفع رمح، أو ركوب خيل.. وباسم دين الرحمة
نقلونه بعنف!

❧ اذهبي

اهزمت إحدى النساء في معركتها مع الشيطان، فاقرنت
فاحشة الربا، فأقبلت إلى بي الرحمة، ويران الدنوب تلسع
روحها، وأثبات الصمير تكاد تستحيل صراحاً قطيئاً.

لقد رنيت، فطهرني يا رسول الله..

ونبي الرحمة يعلم كيف سيكون التطهير، إنه رجم
بالحجارة حتى الموت، ولكنه لا يريد أن تثبت التهمة، يريد
من تلك المرأة أن تستر نفسها، وتوب فيما بينها وبين ربها،
فيشيع عنها، وكأنه ما سمع شيئاً.

فتأتيه من الجهة الأخرى، وهي عازمة على إنهاء صوت
العداب الذي في داخلها: يا رسول الله، لقد رنيت فطهرني.

فيتصنع النبي ﷺ النظر إلى مكان بعيد، وكأنه يتبع لتلك

المرأة المجال أن تهرب، أن تستفيق، أو يعود لها صوابها.
فالنطهير يعني الموت!

فكرّر كلامها: يا رسول الله، لقد زنيْتُ، وأنا حامل من
الزنا، فطهرني.

فقبل عليها النبي ﷺ فتخبره بجُرمِها، فيجعل لها مهلة،
لعلها تَسُرَّ نفسها، وتُخفي جَريرتها، فيقول: اذهبي حتى
تُضحي ما في بطنك.

لقد ظنَّ الرحيم ﷺ أن تسعة أشهر كفيلة بأن تُطفى في تلك
المرأة حُرقتها، وتُخفف من لَوَعتها؛ فتدفن وجهها في الأوحه،
وتتوب فيما بينها وبين ربها.

ولكنها تعود بعد تلك المدة المضروبة! تعود وهي تحمل
وليدها.

فيضرب لها مدة أخرى، ويُطيلها هذه المرة أكثر، فيقول:
اذهبي حتى تُقْطِمي.

لقد أجّلها ستين، لقد أرادت رحمته لتلك الأم المسكينة
أن تعيش بهناء مع ذلك الطفل الصغير، أرادت أن تنسى

تلك المرأة ذنبها (العظيم)، وتبدأ حياتها في ظلال رحمة الله (العظمى)، ولكن شعور تلك المرأة بالذنب كان أقوى من تلك السنوات، وأشد من شعورها بأمومتها، فأتت بعد سنتين وقد فطمت وليدها، فأقام النبي ﷺ عليها حد الله.

الأكثر وضوحاً من تأنيب ضميرها الحي، محاولة النبي الرحيم ﷺ أن يسترها برحمته، وأن يُشيع عنها بشعوره الدافئ تجاه ذلك القلب الذي مرّفته المعصية.

والآن، كيف يوصف دينٌ هذا نبيّه بأنه دينُ الوحشية؟! وكيف يرسم نبيّ هذا قلبه، وهذه رحمته بأنه نبيّ أذى بثقافة القتل، والإبادة والدموية؟ إنه الكذب الصّراح، والظلم الذي نهوّق على كل ظلم.



عندما يكفيك الحصارُ

ما سُئِلَ النبي ﷺ عن شيءٍ قط، فقال: لا!

جابرُ بن عبد الله

عندما يكفيك الحصارُ

«يا دُنْيَا يا دُنْيَا، غُرِّي غُبْرِي؛ زادك حَقِير، وعُمْرُكِ
قَصِير...!»

هذا ما قاله عليُّ بن أبي طالب (عليه السلام)، أحدُ تلاميذِ النبي ﷺ في
ذمِّ الدنيا، واحتقارِها، وعدمِ الركونِ إليها.
هذا التلميذُ؛ فكيف بالأستاذ؟!

لقد كان الدرسُ الأولُ الذي أنقنَ السَّيِّدُ ﷺ تلاميذه
لتلاميذه رضوان الله عليهم هو أن يعدُّوا الدنيا عمراً لا مقرّاً،
جسراً للعبور، لا حصالةً لجمع الخُطام، فلا يكثرثوا كثيراً،
ولا حتى قليلاً، بشطَفِ العيش، وصعوبةِ الحياة، وسوءِ
أحوالِ الطقس، وضمَغِ الناتج المحلي، وليشتقوا من كلمة
(الدنيا) شعوراً مناسباً لها، يجعلها في أنفسهم تحتلُ مكانةً دنيئةً
منخفضة، لا تستحقُّ مع هذه المكانة أن تكونَ حديثَ الساعة،
ولا مثارَ الرأي العام.

فكانت النتيجةُ: أبا بكرٍ الذي يُشبهُ الآخرةَ أكثرَ من شبههِ
بالدنيا..

وعمر الذي يهتف: اخشَوْشِنُوا؛ فَإِنَّ النُّعْمَ لَا تَدُومُ!

وعثمان شهيد الدار: الذي يغادر الدنيا وبيده المصحف..

وأبا عبيدة: الذي يرى بداية الطاعون في يده، فيدعو الله أن يبارك فيها..

وأبا ذر: الذي يهرب من الدنيا؛ ليعيش وحيداً، ويُبْعَثَ وحيداً..

وبللاً: الذي يزوره الموت، فيهتف بشوق: غداً نَلْقَى الأحبة، محمداً وحزبه..

وعبد الله بن ربيعة: الذي ما إن يرى أحداً أصدقائه حتى ينسى الدنيا، ويقول له: تعال بنا نؤمن ساعة..

❧ وتركهم..

ينام النبي ﷺ ذات يوم على حصير يابس الأطراف، مهترئ النسيج، فيستيقظ، فيرى الصحابة الكرام أثر ذلك الحصير في جنب النبي ﷺ، يرون كيف نقش الحصير تفاصيله الناتئة على جسد الرجل النحيل، فيؤلمهم ذلك المنظر، تؤلمهم الدنيا التي لم يأخذ منها النبي ﷺ فراشاً وطبناً لينا! وفي أنفسهم صراخٌ

يقول: ما قيمة دُنْيَا لم يَنْلُ فيها أعظمُ إنسانٍ سريراً ينام عليه
هنا؟!

يقولون له بلهجة المحبِّ: يا رسول الله، لو اتَّخَذْنَا لك وِطَاءً؟
فيقول النبي ﷺ بصوتٍ يقطعُ جذورَ الدنيا، وَيَسْحَقُ
أجزاءَها العلويَّةَ: «مالي وللدنيا؟»، وكانَّ الصَّدَى يكرِّرُ تلك
الكلمة الجبَّارة:

مالي وللدُّنيا.. مالي وللدنيا.. مالي وللدنيا؟!

فتنطفئ الدنيا فجأةً..

ثم يكمل: «ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرة،
ثم راح وتركها»^(١).

أخذت تلك الكلمة: «مالي وللدنيا» تَدَاح في الأجواء،
وتفادَّتها الأصدا، وتتوغَّل في تلك النفوس التي كانت
تحاولُ استيعابَ مقدار العظْمة التي تنطوي عليها تلك النفسُ
الزكيَّة.

(١) رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح

الدنيا ليست حديقة غناء، ولا شجرة في هذه الحديقة،
الدنيا ظل شجرة! إنها أقل من أن تكون شجرة! إنها الظل
الزائل، إنها البقية الباردة التي في الكأس، إنها الأشياء التي
تختفي بمجرد أن نحدق فيها.

ثم استمع إلى «راح وتركها»، ومُدَّ قليلاً في «تركها»، اجعل
نهايتها خفوتاً يلائم خفوت الدنيا، وتلاشيها في نفس الرجل
النبيل عليه الصلاة والسلام.

❦ قهقهة

يَعْرِضُ الْمُشْرِكُونَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ الدُّنْيَا كَبَدِيلٍ يَرُونَهُ مَنَاسِبًا
لِلتَّخَلُّي عَنِ الدِّينِ!

هَمْ لَا يَعْلَمُونَ مَقْدَارَ الْقَهْقَهَةِ الَّتِي تَفْجَّرُ فِي ذِهْنِ الْمُرُوءَةِ
تِلْكَ اللَّحَظَاتِ!

كَانَ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ حَاضِرًا ذَلِكَ الْعَرَضَ السَّخِيفَ!

وَأَخَذَ أَبُو طَالِبٍ يَنْتَظِرُ أَنْ يَهْدِمَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الْعَرَضَ، وَأَنْ
يَمْرُغَ وَجْهَ أَبِي جَهْلٍ فِي التَّرَابِ، فَجَاءَ الرَّدُّ الَّذِي يَصْعَبُ عَلَى
التَّارِيخِ أَنْ يَنْسَاهُ: وَاللَّهِ، لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ

في يسألي على أن أترك هذا الأمر، ما تركته، أو أهلك دونه".
بوقفت العروض، وطاشت أوراق الباطل..

وكان أبا طالب بعدما سمع هذه القذيفة التمت إلى أبي جهل
وقال بطرأته: إن الذي كبره في عيني: صغر الدنيا في عينه..

هذه الدنيا التي أجلب لأجلها أبو جهل بخيله ورجله
وكديه الرحيص لا تصلح أن تكون كرة تُركل بالأقدام في
مذهب الرجل النبل.

مرح أرى جهل بأكمله في استراب، ثم انصرف مكللاً
بحري. وفي الرجل السيل هارثاً بالكمر، كما يبعي للبل أن
يفعل!

جَنَاحُ بَعُوضَةٍ

يقف النبي ﷺ ذات يوم بإزاء الدنيا، والصحابة خلفه
بتطرون تعليقه، فيبتهتهم التعليق، ويذهلون به: «الدنيا
ملعونة»..

(١) سداها صعب، والعلماء لا يشهدون في روايات السير والتاريخ كثيراً

هكذا بصدَم النبي ﷺ تلك الأبراج المشيَّدة، والقلاع
الحصينة، والمناجم المكتظة بالذهب.. «الدنيا ملعونة.. ملعون
ما فيها، إلا ذِكرُ الله، وما والاه، وعالم، أو متعلِّم»^(١).

الدنيا في عين النبي ﷺ ليست «لا شيء»، بل إن اللا شيء
أكبرُ قدرًا منها!

إنها باختصار: «ملعونة».

الدنيا إن لم تكنُ لله، فهي مطرودةٌ من رحمة الله، ومن بركة
الله، ومن توفيق الله..

ويقولُ ذات يوم لِيُحْرِقَ بقايا الدنيا في نفوسِ تلاميذه،
ليحرق بقاياها في نفسي ونفسك: «لو كانت الدنيا تُعَدُّ عند
الله جَنَاحَ بعوضة، ما سقى منها كافرًا شربة ماء»^(٢).

إن جَنَاحَ البعوضة الحَقِيرَ له من القيمة ما ليس للدنيا
بكل تفاصيلها!

والسؤال: بأيِّ جزءٍ من أجزاء ذلك الجَنَاحِ الحَقِيرِ تعلَّقتُ
نفسي ونفسك؟!

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه بإسناد حسن
(٢) رواه الترمذي، وقال: صحيح غريب.

يقول حاتم بن عمار: «ما مثل السيِّئِ كَمَثَلِ عَن شَيْءٍ فَعَط، فقال:

هل يقول «لا» مَنْ رَبَّى صحابته على أن الدنيا أَقْلٌ مِنْ كلمة لا وكلمة نعم؟

أهدته امرأة بُرْدَةً لِيَلْبَسَهَا، فَلَبَسَهَا النبي ﷺ، وكان أَحْوَجُ ما يكون إليها، فرآها رجلٌ، فقال: يا رسول الله، ما أَحْسَنَ هذه فاكُنيها. فقال: «نعم».. فخلَعَهَا، وأعطاهَا إِيَّاهُ».

أهدا الرجلُ تقول قريش: إن كنتَ تريد مُلْكًا مُلْكًاكَ؟

وما هو المُلكُ في قاموس مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام؟

الدنيا بأَملاكها يَخْلَعُها في لحظة، لأجل عينٍ أَحَدٍ رفاقه..

الدنيا كُلُّها لا تساوي عنده رغبةٌ عابرة في نفسِ رجلٍ عابر..

❧ إلا أعطاه

يقول أنسٌ خادِمُ الرجلِ النبيلِ، وقد كان من أعرَفِ الناسِ به: «كان النبي ﷺ لا يَدَّخِرُ شيئًا لَغدٍ».

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) الخبر في البخاري.

(٣) رواه الترمذي، وابن حبان في صحيحه.

حدثني الآن عن مدخراتنا؟

حدثني عن أرصدتنا البنكية، حدثني عن الدنيا التي تنقل
بها من مكان إلى مكان!

ويقول أنس: «ما سُئِلَ رسولُ الله ﷺ شيئاً إلا أعطاه»^(١).

وَضَعُ ما شئتَ من الخطوط تحت: (إلا أعطاه) ..

يقول: «فجاء رجلٌ، فأعطاه غنماً بين جبلين! فرجع إلى قومه
فقال: يا قوم، أسلموا! فإن محمداً يعطي عطاءً من لا يخشى
الفقر»^(٢).

الدنيا أقلُّ من أن يدفعها بيده، إنه حتى لا يريد أن يلمسها،
لا يريد أن يتلبس بشيء من متاعها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «لو أن لي مثل أحد
ذهباً، ما يسرني أن تأب عليّ ثلاث ليالٍ وعندي منه شيء»^(٣).
هنا تتكسر الدنيا موجةً موجةً على شاطئ رجلٍ يصعبُ
على التاريخ فهمُ أغوارِ نفسه العظيمة.

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

الذبح كُنْهَا لَا تَصْلَحُ أَنْ تَكُونَ جَارِيَةً مَمْلُوكَةً فِي بَيْتِ مُحَمَّدٍ
ﷺ إِيَّاهُ يَعْرِفُ قَدْرَهَا جَيِّدًا، فَجَعَلَ إِعَادَتَهَا إِلَى حَجْمِهَا
الصَّغِيرِ مَشْرُوعَ حَيَاتِهِ، وَأَوَّلَى أَوْلَوِيَّاتِهِ.

عَابِرُ سَبِيلٍ

ابْنُ عَمْرٍو مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِي امْتَلَأُوا بِعِطْرِ الرَّجُلِ النَّبِيلِ،
حَتَّى إِيَّاهُ لَمْ يَكْتَفِ بِالْإِقْتِدَاءِ بِسُنَّتِهِ التَّعْبُودِيَّةِ، بَلْ بَاتَ يَفْتَنِي
عَادَاتِهِ الْيَوْمِيَّةِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ السَّلَامُ، وَلَا عَادَاتِهِ فِي حَيَاةِ هَذَا
الصَّغِيرِ

حَتَّى الشَّجَرَةُ الَّتِي كَانَ يَخْفِضُ النَّبِيُّ ﷺ رَأْسَهُ إِذَا مَا مَرَّ مِنْ
تَحْتِ أَغْصَانِهَا، يَخْفِضُ ابْنُ عَمْرٍو رَأْسَهُ إِنْ مَرَّ مِنْ مَوْقِعِهَا بَعْدَ أَنْ
قُلِعَتْ بِسَنَوَاتٍ؛ لِأَنَّ حَبِيَّةً خَفِضَ رَأْسَهُ هُنَا ذَاتَ يَوْمٍ!

رَاحَتِ الشَّجَرَةُ، وَاخْتَفَتِ الْأَغْصَانُ، وَلَمْ يَخْتَفِ طَيْفُ
الرَّحْلِ النَّبِيلِ مِنْ ذَهْنِ ابْنِ عَمْرٍو.

كَانَ هَذَا الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ مَثَلًا لِلزُّهْدِ، وَلِلْبُعْدِ عَنِ الدُّنْيَا،
لَيْسَ فِي بَيْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا شَيْءٌ، وَلَا فِي قَلْبِهِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَلَا فِي
كَلِمَاتِهِ مِنْهَا شَيْءٌ.

أتدري ما السبب؟

اسمع السبب:

يقول ابن عمر: أمسك النبي ﷺ ذات يوم بمنكبي، وقال: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»^(١).

فتحوَّل ابن عمر إلى غريبٍ في هذه الدنيا، وإلى عابر سبيلٍ في أزقة هذه الحياة، تأتيه الخلافةُ عند باب بيته، فيفتحُ البابَ ويركُلهَا، ثم يُغلقُ البابَ بهدوءٍ!

لقد نشر الحبيبُ عليه الصلاة والسلام مبدأ الزهد، والترفع عن الدنيا في قلوب أصحابه؛ لأنه كان يعلم جيدًا أن حبَّ الدنيا هو البابُ الأخطر الذي يدخل من خلاله الوهنُ، وضياغُ الدُّنْيَا، ونسيانُ المبادئ؛ لذلك فقي كل يومٍ من سيرته له كلمةٌ، وفي كل حادثةٍ له موقفٌ، وفي كل منبرٍ له تذكيرٌ يقول: «ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكنتي أخشى أن تُبسطَ عليكم الدنيا، كما بُسطت على من كان من قبلكم؛ فتَنَاقَسُوا كما تَنَاقَسُوا، وتُهْلِكُكم كما أهْلَكْتَهُمْ»^(٢).

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

﴿ انْشُرُوهُ ﴾

يؤنى النبي عليه الصلاة والسلام بهالٍ من البحرين،
يقول الراوي: «وكان أكثرَ مالٍ أتى به رسولُ الله»، هنا محكُّ
الكلمات، واختبار المقولات التي قالها لأصحابه، وهنا التطبيقُ
العمليُّ لدرس: «مالي وللدنيا»..

فقال النبي ﷺ لأصحابه لما أخبروه عن ذلك المال الوفير:
«انْشُرُوهُ فِي الْمَسْجِدِ!»

لَمْ يُرْسِلْهُ إِلَى مَخْزَنِ خَاصٍ مُحَكَّمِ الْإِغْلَاقِ، وَلَمْ يَعْمَلْ جَرْدًا
دَقِيقًا لِمَوْجُودَاتِ ذَلِكَ الْمَالِ، وَلَمْ يُوقِفِ الْحِرَاسَ حَوْلَهُ!

«انْشُرُوهُ فِي الْمَسْجِدِ»؛ فَالِدُنْيَا أَقْلٌ مِنْ أَنْ تُطِيلَ الْكَلَامَ حَوْلَهَا.

فَلَمَّا حَانَتِ الصَّلَاةُ، خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ حَجْرَتِهِ لِلصَّلَاةِ؛
يَقُولُ الرَّاوي: «وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ»!

الْأَحْظَتِ الْعِظْمَةُ؟ أَرَمَقَتِ الشَّمُوخُ؟ هَلْ أَصِيبَتْ بَانْدَهَاشُ؟

لَا عَجَبَ؛ فَإِنَّكَ تَقْرَأُ سِيرَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، الَّذِي يَعْتَقِدُ أَنَّ الدُّنْيَا
أَقْلٌ مِنْ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَيْهَا.

نسيان الذات

إِذَا نَسِيتَ يَا مُحَمَّدُ أَنْ أُطِيقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشِينَ..

مَلِكُ الْجِبَالِ

نسيان الذات

الجَلْمُ والتَّامُعُ هو أن تستطيع أن تتقم، فتفصل أن تنم! وأن تقدر على العقوبة، فتجعل مكانها مكافأة، وأن تتمكن من هدم جدار أو شك أن ينقض عليك، فتشيد.

ولكن ليس من السهل أن تسامح وتحلم عمن ظلمك، ونس في إيدائك، وسهر الليالي حتى يسك مصطلحات يكبرها نفسك، ويقضي على شعور الفرح في داخلك.

ليس من السهل أن تفعل ذلك؛ فالنفس البشرية رُكبت على صعوبة مثل هذا الإجراء؛ فالقضية ليست كلمة نقولها، وإنما إحساس يصبغ رُوحك، ونظرتك، ومشاعرك، ويجعلك ترى ذلك الحضم الألد متساوياً مع الولي الحميم؛ في تعاملك معه، والإحسان إليه.

هذا الأمر الصعب هو من الممارسات السهلة لدى النبي ﷺ، التي انعجت مع نفسه، واتمزجت مع أبيامه الملية بالإرهاق! فبات لا يستصعبها، ولا يشعر بأنه فعل أمراً ذاباً!

عندما يعفو عمن ظلمه، أو يتجاوز عمن بغى عليه، أو يصفح
عن روح تلبسها الشر، ويثبت له المكاييد.

❧ العضو عن فرعون

لو حاولنا أن نتخيلَ الشيطان وقد غدا رجلاً يسير في أرقّة
مكّة راثحاً وغادياً، لصعبَ علينا أن نتخيّله في غير هيئة أبي
جهل؛ ذلك الرجل الذي تحوّل في أذهاننا إلى أيقونة للشر
المحضر، والسخرية اللاذعة، والمؤامرات السوداء، حتى
لقد سماه النبي ﷺ فرعونَ هذه الأمة؛ دلالةً على تأصل
التزعة العدوانية في نفسه، وتمحُّضه للشر، والمعاداة للدعوة
الإسلامية.

ومع هذا، فإننا نلّمح نبيّ التسامح في أيامه بمكّة يدفنُ كل
يومِ سوءات ذلك الطاغية، ويعامله معاملة مستور الحال؛
فيدعوه إلى الله والدار الآخرة وكأنه ليس هو العدو الأول لله،
وليس هو الساخر الأكثر جرأةً من الدار الآخرة.

ثم في لحظةٍ من لحظات التسامح النادرة في عمُر البشرية،
يرفع النبي ﷺ يديه داعياً الله: «اللهم أعزّ الإسلامَ بأحبِّ

هدين الرجلين إليك نأبي جهل، أو بعمر من الخطاب؟

كيف استطاع السيّد أن يصهر شعور الانتقام من رجل
لطنع سُمعته، وآذاه في دعوته، وخطط لاغتياله، ويحوّله إلى
حدب وحرص ورغبة في أن يلتحق بقطار الدعوة، ويغدو
أحد الصحابة الكرام؟!

هذا لا يمكن أن تُطيقه نفس لم تبلغ ذروة العظمة!

﴿مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّْي؟﴾

محطرات أثقلها التعب يلجأ النبي ﷺ إلى شجرة ظليّة،
يعلّق على غصن منها سيفه، ثم يستلقي تحتها، ويغفو إعفاءة
الرجل الذي هدّته مهّات الدعوة، إغفاءة رجل رسالته الأولى
في الحياة إنقاذ العالم من التوحّش الذي يدفعهم إليه الكفر بالله.

في هذه الأثناء، نظر أعرابيٌ يخفي كفره إلى النبي ﷺ، فإذا
بكل التفاصيل تدفعه إلى أن ينفذ خطة أضمرها منذ زمن:
القضاء على الشخص الذي لم تحبّ الدنيا رجلاً مثله من قبل..
خطته هي قطع اليد التي امتدت إلى البؤساء، وخنق الروح

(١) رواه الترمذي، وقال حسن صحيح.

التي تناوّه للحزاني، وإنهاء حياة الرجل الذي يُعدُّ أهم من
الحياة ذاتها

استيقظ النبي ﷺ فجأة، فرأى الأعرابي شاهراً سيفه عند
رأسه.. لم تتبّع عيناه عليه الصلاة والسلام اتساعاً إضافياً،
كما يحدث لأي مندهش، لم تزد وتيرة تبضات قلبه، بل كان
المندهش حقيقة هو الأعرابي! فسأله: ألسنت خائفاً مني؟ فجاء
الجواب كالبرج الضخم المشيد بالثقة بالله: لا..

فأراد الأعرابي من النبي ﷺ أن ينتبه إلى السيف الذي في
يده.. أراد أن يلفت نظره إلى أنه أتى لا غتياه، لا ليرتشف معه
فجائاً من القهوة، فقال: مَنْ يمنعك مني؟ فقال النبي ﷺ بكل
هدوء: الله!

ولأن «الله» خرّجت وخرج معها إحساس بحجم الكون
بمعنى «الله»، فما إن سمعها الأعرابي حتى هوى السيف من يده،
فقام النبي ﷺ وأمسك بالسيف، ثم نظر إلى الأعرابي المذعور،
وقال له: مَنْ يمنعك مني؟ فقال الأعرابي: كُنْ خيراً آخِذاً..

فعفا عنه النبي ﷺ.. فذهب الأعرابي إلى قومه فقال لهم:
جئكم من عند خير الناس..^(١)

(١) رواه أحمد، وأصله في الصحيحين.

إن ما يفعله السيّد ﷺ من عظمة وشموخ لأمرٍ تعجز عن
استيعاد الأرواح التي قطبت الصحراء!

إن محمدًا معضلة من معضلات الحياة بالنسبة لأولئك
الأعراب!

كيف يمكن أن يوجد فردٌ تخلص من فردانيته، واستطاع
أن يتزع نفسه من نفسه، وأن يتعامل مع أحاسيسه بموضوعية
مطلقة؟!

أعرفتَ الارب لماذا تجلس العظمة دائمًا بالقرب منه؟ ولماذا
قرّر الشموخ أن يكون حامل مظلته عليه الصلاة والسلام؟

المواقف التي تقف فيها الأنفاس، وتحتط عند عرق
الدقائق يتعامل النبي ﷺ معها بأناقة بالغة، وبرهافة تدهش
العقول، وكأنه عليه الصلاة والسلام يزاول أمرًا اعتياديًا، لا
أنه يتعامل مع مجرم أتى خصيصًا لاغتiale!

ثم بعد هذا الموقف المليء بالإثارة، يأتي التوقيع النبوي
الجليل بالعفو، ويسقط النبي ﷺ حقه في قتل المخطط
لاغتiale، وتمضي الحياة بهدونها، وتعود ظلال تلك الشجرة
تتموج على صفحة أنبل وجه عرفته البشرية.

❧ رُوحُ شَاسِعَةٍ

يَحَدِّثُنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ عَنْ مَوْقِفٍ حَدَّثَ أَمَامَ عَيْنَيْهِ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَمْشِي وَعَلَيْهِ رِداءٌ غَلِيبُ الحَاشِيَةِ، يَقُولُ أَنَسٌ: «فَادْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِداءِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً، فَانْظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ أَثَرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّداءِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مُزِلَ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعِطَاءٍ»^(١).

اصْدِمْ شُعُورَ الْآتِفَةِ فِي نَفْسِكَ بِمَسْأَلَةِ «جَبْذِهِ»!

أَعْرَابِيٌّ يَجْذِبُ الرَّجُلَ الَّذِي اخْتَارَهُ اللَّهُ لِيَكُونَ رَسُولَهُ إِلَى سُكَّانِ الْأَرْضِ! يَجْذِبُهُ بِشِدَّةٍ، فَتَوَثَّرُ جَذْبَتُهُ فِي صَفْحَةِ عُنُقِ الرَّجُلِ النَّبِيلِ، حَتَّى إِنْ أَنَسَا ﷺ بَرَى أَحْمَرَارًا فِي عَاتِقِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ أَثَرِ تِلْكَ الْفِطَاظَةِ!

ثُمَّ يَقُولُ بُلْغَةً صَحْرَاوِيَّةً بِاللُّغَةِ التَّحْجِيرِ: يَا مُحَمَّدُ، أَعْطِنِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ!

إِنْ فِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْ هَذَا الْمَوْقِفِ مَا يَجْعَلُ الصَّبْرَ يَنْفَدُ، وَالتَّوَاضَعَ يَتَلَاشَى، وَالسَّاحَةُ تَخْتَفِي، وَمَعَ ذَلِكَ يَلْتَفِتُ النَّبِيُّ

(١) رواه البخاري ومسلم.

بيجة إلى الأعرابي ... يضحك!

كيف استطاع ذلك؟ وما مقدار العظمة التي اكتظت بها
رُوحُه الشاسعة، رُوحه مترامية الأطراف؟

كيف تضحك أيها النبلُ وصفحةُ عنقك تحتاج إلى أن
تمسها بيدك المباركة ليخفَّ ألمها؟ أليس لها اعتبار لتغضبَ
قليلًا من أجلها؟

كان عليه الصلاة والسلام يتحكَّم في تصرفاته بطريقة
يصعب على الخيال أن يصدقها، ولم يروها الثقات الأثبات،
لشككت فيها، إذ إن قدرة الإنسان على أن يغدو حليماً متجاوزاً
مهما كبرت فهي محدودة، ومهما اتسعت فإن لها مساحة
انراضية لا يمكن تجاوزها، ولكن النبي ﷺ - في جميع فصول
سيرته - أثبتَ للدنيا أنه استثناءٌ في كل شيء، وأن الجِلْمَ أحدُ
الصفات التي كان فيها استثنائياً بدرجة هائلة!

❦ إن شئت

كان النبي ﷺ في جلِّهِ وكأنه بلا غضب، وبلا خاصة
التألم من المواقف الصعبة، فتجده يُتقِنُ مهارةً غَضَّ الطرف
عن الإساءة الجارحة، ولديه سرعةٌ عجيبة في نسيان مواقف

الحِذْلَانِ التي يَطْعُنُهُمَا رِفَاقُ الْأَمْسِ، وَأَصْفِيَاءُ الزَّمَنِ الْمَاضِي.
عَادَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ رَحْلَةٍ دَعْوِيَّةٍ شَاقَّةٍ، سَافِرٍ
فِيهَا إِلَى الطَّائِفِ، كَانَتْ نَتَائِجُهَا: تَكْذِيبًا، وَطَرْدًا، وَدَمَاءً تُثْعَبُ
مِنْ جَسَدِهِ الطَّاهِرِ.

عَادَ وَهُمْ كَالْجِبَالِ يُحِيطُ بِهِ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، فَكَيْفَ
سَيَرْجِعُ إِلَى مَكَّةَ؟ وَيَايَ وَجْهِ سَيَلْتَقِي بِأَبِي جَهْلٍ الْمَعَانِدِ، وَأَبِي
هَبٍّ الْمَتَكَبِّرِ، وَعُقْبَةَ الْمُسْتَهْزِئِ؟!

فَيَدْعُو اللَّهَ بِدَعَاءٍ لَوْ أَذِنَ اللَّهُ لَهُ أَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَى عَاصِفَةٍ، لَانْتَرَعَ
مَشْرُكِي مَكَّةَ مِنْ بَيْنِ الْجِبَالِ، وَأَلْقَى بِهِمْ فِي وَادِي النِّسْيَانِ.

وَمِنْ بَيْنِ تَهْوِيَّاتِ ذَلِكَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ، يَنْزِلُهُ مِنَ السَّمَاءِ
مَلَكُ الْجِبَالِ بِنَفْسِهِ، لِيَقُولَ لِلنَّبِيِّ الَّذِي كَذَّبَهُ رِفَاقُ الْأَمْسِ،
وَشَبِعُوهُ بِأَنْوَاعِ الشَّتَائِمِ، وَجَعَلُوهُ رَمْزًا لِلْكَذِبِ وَالْدَجَلِ؛
يَقُولُ لَهُ: «إِنْ شِئْتَ أَنْ أَطِيقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشِينَ»، وَالْأَخْشِيَانِ:
جَبَلَانِ يَحِيطَانِ بِمَكَّةَ.

كَأَنَّهُ يَقُولُ: «إِنْ شِئْتَ أَنْ أَنْهِيَ أَبَا جَهْلٍ الَّذِي أَوْقَفَ حَيَاتَهُ
لِصَبِّ الْعَذَابِ عَلَى رِفَاقِكَ، وَأَقْضِيَ عَلَى عَقْبَةِ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ

الذي وضع سلاّ الحرور على طهرك، وأسحق أبا لهب الذي
أشاع بين الناس أنك كذاب..

إن شئت أن تصل إلى مكة فلا تجد هؤلاء العتاة الظلمة،
فأنا أفعل ذلك الآن، أطبق عليهم الجبلين لتنتهي أسطورة
الإجرام والتكذيب.

في هذه اللحظة التي تتوقف فيها أنفاس التاريخ، يقرّر
النبي ﷺ أن ينسى دموعه، وأن يؤجل أحزانه، وأن يتنازل
عن حق دمائه التي ما زالت تُثعب، ويقول بلغة لا يفهمها
التوحش الذي توغل في أغوار الأرض تلك السنين: «بل
أرجو أن يخرج الله من أصلاهم من يعبد الله وحده، ولا يُشرك
به شيئاً»^(١).

يا هذه النفس التي تفكر في لحظة الانتقام اللذيذ بالغدا!
تفكر في عدم لم يخلق الله بعداً!

إنه لم يسامح الأحياء، بل إن جلعة وتساعه تجاوز الأحياء
إلى أناس لم يخلقهم الله بعداً!

(١) الخبر بتهامه في صحيح مسلم.

ثم يكمل طريقه إلى مكة، وكلُّ حجّير في الطريق يرمق
العظمة وهي تسير، والشموخ وهو يدفن رغباته، ويتعالى
عليها.

يعود إلى مكة المكتظة بالحياة، التي لولا الله ثم قلبُ هذا
الإنسان العظيم، لبانت بلا حياة، يعود لتصدمه فهقهاتُ
أبي جهل، وأكاذيبُ أبي لهب، وسخرّيات عقبة، فينظر إليهم
ودويُّ صوتِ ملكِ الجبال يرنُّ: «إِنْ شِئْتَ أَنْ أَطِيقَ عَلَيْهِمُ
الْأَخْشِيِّينَ»، فيقرّر عليه الصلاة والسلام أن يستعِضَّ عن
إطباقِ الأخشيين بأن يُطِيقَ هو جَفْنِيهِ عن تلك النفوس
المريضة، ويسير في دروب الحياة بعظمة تنظر إليها جبالُ مكة
بنهول.



الإطار الأجل

«كنتُ أمشي مع النبي ﷺ وعليه بُردٌ نجرانيٌّ
عبطُ الحاشية»

أنس من مالك

الإطار الأجل

لن يحنج محمد ﷺ إلى سوارين كيوارني كسرى؛ ليثبت
سعام أنه الرجل الأول.

لن يحنح إلى قصر ذي قباب كثيرة، ومداخل واسعة،
وشرف مثبدة بالرُخام الصقيل؛ حتى يفهم الناس دعوته،
ويعملوا بسنته، ويتلوا القرآن الذي أنزل عليه.

لن يحنح إلى فخامة مصطنعة، وإطار متكلف؛ لتدو
صورته أكثر جمالاً؛ فخامة نفسه كافية جداً، وشهائله الطيبة
أجل إطار لروحه المكتظة بالجمال والجلال.

إن الأنبياء التي تسكن داخل محمد ﷺ ذات نضاعة كافية؛
بحيث إن أي محاولة لإضافة تحسينات قد تطمس شيئاً من
توهجها الفريد! فلا أجمل عند الحديث عن محمد ﷺ من الحديث
عنه بالهيئة التي كان عليها، دون إضافة لمسات، أو رفع في
درجة الإضاءة، عليه من الله أزكى الصلاة، وأتم التسليم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ، فنظر
إلى السماء، فإذا ملك يتزل، فقال جبريل: إن هذا الملك ما نزل

مند يوم خُلِقَ قبل الساعة، فلما برل، قال: يا مُحَمَّدُ، أرسلي
إليك ربك، قال: أفعلي كما نيتي يجعلك، أو عبدًا رسولًا؟ قال
جبريل: تواضع لربك يا مُحَمَّدُ، قال: «بل عبدًا رسولًا».

فلم ينفك النبي ﷺ عن تأدية رسالة ربه بروح العبد لله،
التواضع لجلاله، الذي انزاحت الدنيا عن قلبه، فبات أهم
بيت شعر في قصيدة عظماء التاريخ.

❦ أين محمد؟

الشيء الذي يصدمك في شخصية الرجل النبيل عليه
الصلاة والسلام: هو أنه لم يكن يسعى إلى أن يغدو مُهابًا، أو
أن يتخلق بها بضاد طبيعته العفوية، التي زادت هيبته وحبًا.

فقد كان الرجلُ الغريب يدخل إلى المسجد باحثًا عنه، وهو
لا يعرفه، فلا يستطيع الوصول إليه بيته معينة، أو ليس انفراد
به، فيحتاج إلى الداء: أين مُحَمَّدُ؟

لقد أسقط عليه الصلاة والسلام جميع (البرونوكولات)،
التي يظن بعض الناس أن المنصب يقتضيها، وأنها (رتوش)

(١) رواه الإمام أحمد، وصححه شاكر.

إصافية تحافظ على هيبة الكرسي، وجلالة المكانة، ولكنه عليه الصلاة والسلام قرّر شطبها من قائمة اهتماماته؛ فليس هناك شيء يحافظ على هيبة الكرسي أقوى من العدل والإنصاف، ولا رتوش تُبقي للمنصب مكانته وأبهته كالصدق والتواضع!

لم يكن ثمة اختلاف ظاهري كبير بينه وبين أبي ذر، أو عبادة بن الصامت، أو خباب بن الارت رضوان الله عليهم.

ولم يكن هناك شيء يلبسه ليفرق الناظر إليه بين سلمان الفارسي، أو بلال بن رباح، أو صهيب الرومي!

ومع ذلك، فما إن تلقى عبّ الناظر إليه بعينه حتى يأتيه ذلك الإحساس الخاص، وذلك الشعور الدقيق!

يقول عبد الله بن سلام ؓ وقد كان يهوديًا فأسلم فيما بعد: «لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ، انْجَفَلَ النَّاسُ قِيْلَهُ، فَقَالُوا: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ، قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ، فَجِثُّ فِي النَّاسِ لَانْظُرَ إِلَى وَجْهِهِ، فَلَمَّا رَأَيْتُ وَجْهَهُ، عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ!'''

هذا يهودي لم يسبق له أن رأى النبي ﷺ، يزاحم فيمن

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني.

يراحم؛ لينظر إلى وجه هذا الذي جاء للتو من مكة، ويزعم أنه نبي، فإذا أول ما رآه في وجهه: أماراتُ الصديق، وهالاتُ المؤمن الذي لا يمكن له أن يقول الكذب!

كيف للصدق أن يتحول من أحرفٍ تخرج من الفم إلى نظراتٍ تنبعث من العين، وإلى هدوء يسكن في القسَمات؟
هذه هي الهيبةُ والمكانة التي يحتاج إليها صاحبُ المنصب!
إنها أشياءُ أغلى من المراكب، والتشريفات، والمراسيم..

❧ بلا موكب

وكان لئن الجانب مع الضعفاء؛ يقول أنسٌ (رضي الله عنه): «إن كانت الأمة من إمام أهل المدينة لتأخذُ بيد رسول الله (ﷺ)، فتنتقلُ به حيث شاءت»^(١).

بلا موكب، وبلا خَدم، ولا حشم، تأتيه الأمة (تقولُ بعض الروايات: إن في عقلها شيئاً!)، فبسير معها حيث شاءت، وهي تُروِي له حاجتها، وتحكي له مشكلتها، فلا يطلبُ منها أن تأتي أبا بكرٍ لينظر في حاجتها، أو يُحيلها على عمر لتسجلَ

(١) رواه البخاري ومسلم.

موعدها لديه، بل كان هو مَنْ ينطلقُ معها، وينظر في شأنها بكل عفوية عظيمة، وتواضع مهيب.

❧ غليظُ الحاشية

كان عليه الصلاة والسلام أسهلَّ ما يكون في لباسه، لم يكن يبحثُ عما يلفتُ الأنظارَ، بل يبحثُ عما يُريحُ نفسه، ويجمعُ قلبه على قضاها الإيمان التي بعثه الله من أجلها.

فمن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ صلى في خبيصة لها أعلامٌ، فنظر إلى أعلامها نظرةً، فلما انصرف قال: «أذهبوا بخميصتي هذه إلى أبي جهم، وأتوني بأنبجانيَّة أبي جهم؛ فإنها أحسنُ أنفاً عن صلاتي».

والأنبجانيَّة: كساءٌ غليظٌ من صوفٍ، يفضلُه النبي ﷺ على الخميصَةِ، ذاتِ البهاء والألوان الجميلة؛ لأنها لا تشغله بجمالها عن جلال مَنْ يناجيه؛ فالحياءُ عند محمد ﷺ ليست مسرحاً للتجملِ والبحثِ، وإنما مضمارٌ للسير إلى الله، وعل هذا فليلبسِ الغليظَ من الثياب، والرثَّ من الأسماك، ما دام

(رواه البخاري تعليقاً).

خَفَقَانُ قَلْبِهِ يَهْدُأُ مَعَ هَذَا اللَّبَاسِ الْمَتَوَاضِعِ جَدًّا.

يقول أنس (رضي الله عنه): «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ (ﷺ) وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِي غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ...»^(١).

هَذَا الَّذِي لَوْ أَرَادَ لِدَعَا اللَّهَ فَجَعَلَ لَهُ خَيْرًا مِمَّا يَمْلِكُ عَظْمَاءُ الدُّنْيَا؛ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾، وَمَعَ ذَلِكَ يَلْبَسُ بُرْدًا نَجْرَانِيًّا غَلِيظَ الْحَاشِيَةِ^(٢).

وَهَذَا الْبُرْدُ النَجْرَانِي يَذْكُرُنَا بِالْجَبَّةِ الشَّامِيَةِ الَّتِي تَحَدَّثَ عَنْهَا الْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ؛ أَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) كَانَتْ عَلَيْهِ جُبَّةٌ شَامِيَّةٌ، وَهَبَ لِيُخْرِجَ يَدَهُ مِنْ كُمِّهَا، فَضَاقَتْ، فَأَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ أَسْفَلِهَا^(٣).

وَضَعُ خَطًّا تَحْتَ: «فَضَاقَتْ»، ثُمَّ سَأَلَ نَفْسَكَ: مَتَى ضَاقَ عَلَيْكَ ثَوْبٌ مِنْ ثِيَابِكَ، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُخْرِجَ يَدَكَ مِنْ كُمِّهِ لِلْوُضُوءِ، فَاحْتَجْتَ إِلَى أَنْ تُخْرِجَ يَدَكَ مِنْ جِهَةِ رِقْبَةِ الثَّوْبِ؟ إِذَا رَأَيْتَ رِيَّاحَ الْعَفْوَِيَّةِ تَهْبُ، فَتَقْتَلِعِ الزَّيْفَ، وَتُلْغِي

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) غليظ الحاشية: أي أطرافه خشنة غير ناعمة.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

التجبر، وتطمس الكذب الذي يحيط به المتكبرون أنفسهم:
«علم أنك بإزاء الرجل النبيل محمد ﷺ».

عظيم في خرابة

استوقفني حديث في صحيح البخاري، أو بالأحرى
متذمة الحديث هي التي استوقفتني كثيراً، وسأكتفي بذكرها؛
يقول عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه): «بيننا أنا أمشي مع رسول الله ﷺ
في خرب المدينة، وهو يتوكل على عسيب...» الحديث^(١).

أتدري، ما الخرب؟

إنها الأماكن المهجورة، التي هجرها الناس، وتمددت على
أرضها الحشائش غير النافعة، وهانت على أصحابها؛ فبات
الناس يرمون فيها أمتعتهم التي لا يحتاجون إليها!

هذه هي الخرابة، وتجمع على خرباً

فكان النبي ﷺ يمرُّ ومعه ابن مسعود ب تلك الأماكن،
فيسير فيها بكل تواضع، وبلا أنفة مزعومة، أو كبر يرتدي
ثوب العزة!

(١) رواه البخاري ومسلم.

هو عليه الصلاة والسلام أعزُّ الناس، وأرفع الناس، دون
أن يختار لقدميه الأماكن الأكثر ثراءً!

لم يحتاج حتى يقنع الناس بأهميته إلى أن يمشي على السجاد
الأحمر، ويلقي الزرابي على جانبيه، ويرسل فتية أمامه
ليحملوا المجامر التي ينبعث منها البخور الهندي الفاخر!

لقد استعاض النبي ﷺ بحجارة المدينة السوداء عن
السجادة الحمراء، وبالحشائش المسترة في تلك الخرائب عن
الزرابي المبوثة، وبرائحة تراب المدينة الطاهر عن تلك المجامر
المنضوعة طيباً!

أعظم رجلٍ التفت عين الرجولة به يمشي في خرابة بكل
عظمة، ويكل شموخ.. إن الشموخ لا يعني أن أحياب بضداع
المهابة، وأن أقلق من حولي وأتعبهم في اختيار ما ألبس، وما
أركب، وأين أسير، وكيف أتكلم! فأعظم العظمة تسكن في
أبسط البساطة.. وهذا ما كان النبي ﷺ يريد أن يقنع العالم به!



وَكَيْفَ إِنْ سَأَلْنَا

أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ جِئْتُ أَحْرُسُكَ!

سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ

وَأَكَانَ إِنْسَانًا

الإنسانية شيءٌ تُصِرُّه في كل زاوية من زوايا حياته عليه الصلاة والسلام، ولا تستطيع أن تنزع صفةً من صفاته عن الإنسانية! فقد أراده الله إساناً ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾.

ههي رحمته إنسانية، وفي شجاعته إنسانية، وفي وفائه إنسانية، وفي غصه إنسانية. وفي إنسانيته أرقى معاني الإنسانية!

فقد كان النبي ﷺ في كل فصول حياته يحاول أن يجدد معنى أنه إنسان؛ يغضب ويرضى كالbشر، يحب ويكره كالbشر، ويفرح ويحزن كالbشر.. ولكنه في أموره التي يكون فيها كالbشر يتفاعل معها تفاعلاً يجعله فيها ملاكاً في صورة بشرا

إن إنسانيته عليه الصلاة والسلام تريد منا ألا ننسل من احتياجاتنا، ولا نهرب من أحاسيس العفوية، وألا نصنع لأنفسنا تماثيل ثم نطوف حولها!

لن تكون حياً إذا لم تتحرك مع الحياة وفق حركتها العادية؛

أن نصحت إذا استدعى الموقف، وتبكي إن اختلج قلبك،
ونعيت إن رأيت ما نهى إليه النفوس، وتخاف إن تسللت
الرهبة إلى داخلك.

أن تكون إنساناً تحركه الحياة بيدها، ويحرك الحياة بروحه؛
هذا ما يريد محمد ﷺ، وهذا ما كان عليه.

❧ إنسانية بحتة

يقرُّ عليُّ بن أبي طالب ع زَوْجُ فاطمة بنت النبي ﷺ أن يتزوج
امرأة أخرى؛ هي ابنة أبي جهل عدو الإسلام الأول.

وهذه قصة لا مشكلة فيها من الناحية الدينية، فتمى الخبر
إلى علم النبي الإنسان ﷺ، فغضب، غضب غضبة بشرية، ثم
صدع بمقرته: «لا تجمع ابنة رسول الله مع ابنة عدو الله»^(١).

وقد أخبر النبي ﷺ أنه لا يحل حراماً، ولا يحرم حلالاً،
إذا القضية شخصية، لها علاقة بأبوينه أكثر من علاقتها بنبوته.

إننا نكون في ورطة حقيقية لو بعث الله لنا ملكاً، لا يشعر
بما نشعر به من أحاسيس، ولا يعترضه ما يعترضنا من مشاعر.

(١) أصل الخبر في الصحيحين.

لذلك؛ فقد قدر الله على نبيه الكريم أن يكون إنساناً؛
لنستطيع الاقتداء به، ونتفهم الشعور الإنساني كيف يفعل
وهو يتعاقب مع ذروة الجلاء الوجداني، فلا يلقي الأول الثاني،
ولا يدفن الثاني الأول.

هو نبي عظيم، وإنسان كريم، لم يبعثه الله تعالى ليخفف
معاني الإنسان في قلوب الناس، فلا يغضبون ولا يحبون، ولا
يضحكون ولا يبكون، بل جاء ليعلّمهم كيف يكون، ولكن
تجلّد، وكيف يضحكون، ولكن بوقار، وكيف يحبون، ولكن
برقي، وكيف يغضبون، ولكن بعقل!

علّمهم كيف يمزجون طبائعهم الأرضية بفيضهم السماوية؛
فيتج عن ذلك أعظم مزيج.

❧ بند العادية

ذات يوم حصل خلاف بين جعفر بن أبي طالب وعلي
بن أبي طالب عليهما السلام حول ابنة حمزة بن أبي طالب بعد موته عليه السلام
في غزوة أحد، وأيهما أحق بولايتها.. فافتنع النبي صلى الله عليه وآله بحجة
جعفر؛ فحمل البنت في كفalte..

فماذا فعل جعفر؟

قام يَجُولُ حول النبي ﷺ؛ وهو قَفَزَ على قَدَمِ واحدة،
بطريقة نَعْبُرٍ عن الفرح، فاستغرب النبي ﷺ ذلك التصرُّفَ،
وسأله عنه، فأخبر أنه تفاعلٌ طبيعيٌّ، يفعله الحبشةُ في مثل هذه
المواقف السعيدة^(١).

فلم يَخْنُقِ النبيُّ الإنسانُ ذلك الشعورَ الإنساني، وذلك
الفعلُ العفوي، الذي اقتبسه جعفرٌ من أساس كَفَّارٍ! وإنما
عَدَّهُ تصرُّفاً عادياً، يوضع تحت بند العاديَّة، ولا يستحقُّ حتى
التعليق... بل قد يجلب ابتسامةً، كثيراً ما يرسلها النبيُّ ﷺ في
مثل هذه المواقف؛ ففي رواية للقصة: أن النبي ﷺ قَبَّلَ بين
عينَي جعفرٍ، وقال له: أنت أشبهُ الناسِ بِخُلُقِي وَخُلُقِي!

❧ رَعِشَةُ خَوْفٍ

وتحدَّثنا وتحدثُ كثيراً عن شجاعته عليه الصلاة
والسلام، وتوكُّله على الله، ولكن الله تعالى يَقْدِرُ له ذاتُ ليلةٍ
أن يَمَسَّ رُوحَهُ ما نشعر به من خوفٍ ورهبةٍ؛ تقول عائشةُ
رضي الله عنها: «أَرِقَ رسولُ الله ﷺ ذاتَ ليلةٍ، فقال: ليت

(١) أخرجه أبو داود، وحسنه العراقي

رجلاً صالحاً من أصحابي يحرُسُني الليلة! قالت: فسمعنا
سوت السلاح، فقال رسول الله: مَنْ هذا؟ قال سعد بن أبي
وقاص: أنا يا رسول الله، جئتُ أحرُسُكَ، فنام رسول الله
ﷺ حتى سَمِعْتُ غَطِيطَهُ^(١).

كيف كنا ستعامل مع مخاوفنا البشرية لو لم يخفِ النبي ﷺ
تلك الليلة؟ كيف كنا ستردي ببعضنا لبعض لو صرَّح أحدهم عن
خوف مَسِّ قلبه، أو رهبة تسَلَّتْ إلى نفسه؟

إنه الإنسان الذي تهبُّ نوائمُ الرهبة على قلبه، فيتعامل
معها بإنسانية؛ حتى لا يلوم بعضنا بعضاً.. حتى لا يظهر
متقمصو النقاء والطهرانية فيقرِّعوننا على رعشة خوف، أو
دمعة همٍّ، أو انقباص هيبة!

❧ المعادلة الصعبة

لم يكن النبي ﷺ يعتقد أن الحياة مسجدٌ، كل ما فيها ذِكْرٌ
وصلاة وعبادة، بل إنه جاء ليَجْعَلَ العبادة شيئاً أكبرَ من الصوم
والصلاة.. إنَّ العبادة أنْ تعيشَ في الحياة بالشكل الذي أرادك

(١) رواه البخاري ومسلم.

الله أن نعيشه فيها.. إنَّ العبادة أنْ تصليَ ونصومَ وتجاهدَ، وأن
تنامَ وتأكلَ وتضحكَ.

إنَّ هذه المعادلة الصعبة على بعض الأنفس هي في حقيقتها
خروجٌ من شكل العبادة، ودخولٌ إلى قلب العبادة النابض.

العبادة ليست أن تتحوَّلَ إلى مَلَكٍ، وإنما أن تبقى بشراً
يسجد هنا، ويضحكُ أهلهُ هناك.

قعد عثمانُ بن مظعون يتعبَّدُ، وفرَّغَ نفسه لذلك، فأثابه النبيُّ
ﷺ فقال: «يا عثمان، إن الله لم يعشني بالرهبانية، وإن خيرَ
الدين عند الله الحنيفيةُ السمحةُ»^(١).

إذًا، كُنْ إنساناً قبلَ وبعدَ وفي أثناء فعلِكَ للعبادة، تَكُنْ
حنيفياً سمحاً..

هذا ما علَّمَهُ النبيُّ ﷺ لأصحابه؛ بقوله، وبفعله، وفي
تفاصيل حياته كلها.

(١) أخرجه ابن سعد وحننه الألباني.

❧ أريد رؤيتك!

يُخْبِرُ أَصْحَابَ السَّيْرِ: أَنْ وَحْشِيًّا (قاتل حمزة) قَدِمَ إِلَى الْمَدِينَةِ مُسَلِّمًا، فَرَأَاهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: وَحْشِيٌّ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اجْلِسْ، فَحَدَّثَنِي كَيْفَ قَتَلْتَ حَمْزَةً، قَالَ: فَحَدَّثْتُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَيْحُكَ! غَيَّبْتُ عَنِّي وَجْهَكَ، فَلَا أَرَيْتَكَ»، قَالَ: فَكُنْتُ أَتَنَكَّبُ النَّبِيَّ ﷺ حَيْثُ كَانَ، حَتَّى قُبِضَ^(١)

كَانَتْ نَفَاصِيلُ قِصَّةِ مَقْتَلِ حَمْزَةٍ مَوْليَةً جَدًّا، وَكَانَ حَمْزَةُ رَكْنًا مِنْ أَرْكَانِ هَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ، أَسْلَمَ فَكَانَ إِسْلَامُهُ فَتْحًا وَعِزًّا، وَبَاتَ ضَعْفَاءُ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ مَوْتِهِ فِي مَنَعَةٍ، فَكَيْفَ تَظُنُّ أَنْ تَفْعَلَ نَبْضَاتُ قَلْبِ النَّبِيِّ الْإِنْسَانِ وَهُوَ يَسْمَعُ قِصَّةَ قَتْلِهِ الشَّيْعَةِ؟ كَيْفَ سَتَتَحَرَّكُ الدَّمَاءُ فِي جَسَدِهِ؟ كَيْفَ سَيَتَفَاعَلُ الْإِنْسَانُ فِيهِ مَعَ الْوَحْشِيَّةِ فِي ذَلِكَ السَّرْدِ الدِّمَوِيِّ؟

لَا أَرِيدُ رُؤْيَاكَ، غَيَّبْتُ عَنِّي وَجْهَكَ! حَتَّى لَا نَعُودَ صُورَةَ حَبِيبِي حَمْزَةٍ وَهُوَ بِصَارِعِ الْمِغْتِيَالِ غَادِرٍ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ فِي قَلْبِ مَعْرَكَةٍ!

(١) الْقِصَّةُ فِي صَحِيحِ الْحَارِثِيِّ بِصِبْغَةِ مَقَارِنَةٍ.

اغتيال تشكّل بربشة ألوانها الدماء والغدر، وقدر من
الوحشية لا بأس به.

لا تقهرني بالعاصفة، ثم تبحث عندي عن مطر!
هذا ما أراد النبي ﷺ أن يفهمه وحشي، وكل وحشي.

لم يقاوم النبي ﷺ تلك المشاعر الإنسانية في ذاته، لم يحاول
أن يستجلب معنى التسامح والهدوء النفسي والتصالح مع
الذات، بل ترك الإنسان يتحدث؛ حتى نتعلم أن لا تعارض
بين أن أكون جيّداً، وأن أكون رجلاً يغضب إذا ما استغضب،
فأرجوك لا تحقّق الإنسان في نفسي! سأعمالك قدر الاستطاعة،
سأكظم غيظي بكل ما أوتيت من صبر، ولكن إن عجزت
ذات يوم عن هذه الملائكية، فلا توبّخني؛ فانا إنسان!

❦ فضحكك

كانت لعبد الله بن رباح جارية يستسرها عن أهله،
فبصّرت به امرأته يوماً قد خلا بها، فقالت: لقد اخترت أمك
على حُرّتك؟

فجأحدها ذلك، وأنكر.

قلت: فإن كنت صادقاً، فاقرا آية من القرآن؛ لأنها تعلم
أنه إن كان على جنابة، فلن يقرأ القرآن!

فاحتال عبد الله عليها، وقرأ شيئاً من الشعر على أنه قرآن، فقال:

شَهِدْتُ بِأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
وَأَنَّ النَّارَ مَشْوَى الْكَافِرِينَ

قالت: فزدني آية.

فقال

وَأَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ طَافٍ
وَفَوْقَ الْعَرْشِ رَبُّ الْعَالَمِينَ

وَنَحِيلُهُ مَلَائِكَةُ كَرَامٍ
مَلَائِكَةُ الْإِلَهِ مُقَرَّبِينَ

فقالت: آمنت بالله، وكذبت البصراً

فأتى رسول الله ﷺ فحدثته، فضحك، ولم يغير عليه."

(١) أخرج الفقه ابن عساکر، وقال ابن عبد البر في الاستيعاب ورواهما من وجوه
صحاح.

أرجوك استخرج: «فَضَحِكَ ولم يَغَيِّرْ عليه»، وكَبَّرَها
أضعاف المرات، واجعلها شعارًا لك في حياتك، مع هذه
المواقف العنوية.

مع أن عبد الله أتى بآيات من الشعر على أنها كلام الله،
ومع ذلك: «ضَحِكَ ولم يَغَيِّرْ عليه»!

عندما جاء الرجلُ النبيل لم يخترع ثيابًا تُظهِرُ مَنْ يرتديها
عطيًّا، فقط نفَّضَ الغبارَ عن قميص الإنسانية، ثم ارتداه،
وخرج.. عندها جمع التصنعُ ثيابهُ في حقيبتِه، وقرَّرَ المغادرة!

أرايتم إنسانًا استطاع أن يحافظ على الإنسان في نفسه
كمحمد ﷺ؛ ففي الوقت الذي شَبَّدَ معاني الإيمان العميق في
النفوس، لم يَحْدِشِ الإنسانَ الذي يُغِمُّضُ عينه، أو حتى عينه،
عن بعض العفويَّاتِ التي تقع في طريقه..

❧ مَسْحَةُ مَلِكٍ

وكان عليه الصلاة والسلام يحبُّ الجمالَ، ويلاحظ بلاغةَ
القصيصة الجزلة، وتهذُّجاتِ الصوت الأخاذ، وتقاسيم الوجه
للملائكي.

لَمْ يَكُنْ نَاسًا تَقْسِمُ أَمْرًا يُعْمَضُ عَلَيْهِ عَمَّا، وَلَمْ يَكُنْ
تَصْعَدُ سِرَاتٍ مِمَّا يَرَى أَنْ الْاهْتِمَامَ بِهِ هُوَ اهْتِمَامُ مَأْمُورٍ لَا
مَسْحُورٍ، بَلْ يَخْتَارُ أَجْمَلَ الْكَلِمَاتِ يَصِفُ بِهَا أَجْمَلَ مَا وَهَبَ
إِلَيْهِ نَاسٌ مِنْ حَوْلِهِ، حَتَّى يَعْلَمَ الْبَشَرِيَّةَ الَّتِي أَوْشَكَتْ عَلَى
دُخُولِ مَرَحَلَةِ التَّحْيِيطِ أَنَّ الْجَمَالَ رَقْمٌ يَحِبُّ الْإِلْتِفَاتِ إِلَيْهِ، وَمِيزَةٌ
مُحَرَّمَةٌ عَلَى الْأَرْوَاحِ أَنْ تَجَاوِزَهَا دُونَ تَوْقِيعِ مَا.

تَأَخَّرَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَاسْتَبْطَنَتْهَا النَّبِيُّ
ﷺ، فَلَمَّا عَادَتْ، سَأَلَهَا عَنْ سِرِّ تَأَخُّرِهَا، فَأَخْبَرَتْهُ أَنَّ: «فِي
الْمَسْجِدِ رُحُلًا، مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ قِرَاءَةً مِنْهُ».

فَبَلَّ تَنْظُرُ أَنْ السِّيَّيَّةَ سَبِغَ نَفْطَةً، لَا! إِنَّهُ الْجَمَالُ الَّذِي
يَأْسِرُهُ، بِأَحَدِ وِدَائِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَيَخْرُجُ مَسْرِعًا إِلَى
الْمَسْجِدِ؛ يَرِيدُ أَنْ يَكْتَشِفَ مَنْ هُوَ صَاحِبُ ذَلِكَ الصَّوْتِ
الْجَمِيلِ! يَقْتَرِبُ مِنَ الْمَسْجِدِ وَالصَّوْتُ يَنْدَاحُ فِي أَجْوَاءِ الْمَدِينَةِ،
وَيَرِيدُ وَضُوحًا وَسَطْوَعًا، عَرَفَهُ النَّبِيُّ ﷺ، وَكَيْفَ لَا يَعْرِفُهُ وَهُوَ
أَحَدُ أَفْرَادِ دَارِ الْأَرْقَمِ بِمَكَّةَ، أَحَدُ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَائِلِ؟! يُمْكُثُ
طَوِيلًا يَسْتَمِعُ (كَمَا تَصِفُ عَائِشَةُ)، ثُمَّ يَعُودُ وَيُخْبِرُهَا أَنَّهُ سَاسِمٌ

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَقَالَ عَمَّا شَعِيبٌ: حَسَنٌ لَعِبَرَةٍ.

مولى أبي حذيفة، ثم يقول: «الحمد لله الذي جعل في أمّتي مثله».
انتحدث عن اهتمامه عليه الصلاة والسلام، أم خروجه،
أم طول مكثه مستمعاً، أم إعجابه، أم إنسانيته التي جمعت كل
ذلك الزخيم الجميل؟^(١)



يقول لأبي موسى: «لو رأيته وأنا أستمع إليك البارحة،
لقد أوتيت مزامراً من مزامير آل داود»^(٢).

إن تصنع عدم المبالاة لا يصنع العطاء؛ فالعظيم هو من لا
تفوته التفاصيل المؤثرة، التي يجعل التعليق عليها الحياة أجمل،
والأرواح أكثر طُمأنينة.

يصف عليه الصلاة والسلام جرير بن عبد الله البجلي بأن:
عليه مسحة ملك^(٣).

ونخبرنا أن جبريل ينزل بصورة دحية الكلبي.. مما يجعل

(١) رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

(٢) صحيح ابن حبان.

دُخْيَةٌ وَغَيْرَ دُخْيَةٍ يَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا الْاِخْتِيَارَ نَاجِمٌ عَنْ جَمَالِ دُخْيَةِ
الْكَلْبِيِّ^(١).

إِنَّ تَحَوُّلَ الْإِنْسَانِ إِلَى صَحْرَاءَ قَاحِلَةٍ لَا تُحْسُّ، وَلَا تَهْشُ
لِلْجَمَالِ، وَلَا تَعْبُرُ عَنْ التَّفَاتَاتِ الرُّوحِ، لَيْسَ شَيْئًا حَيْدًا، فَضْلًا
عَنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ مَنَازِعِ الرُّجُولَةِ، وَسَمَاتِ الْقِيَادَةِ



عِبْقَرِيَّةُ الْإِلَهَامِ

هل تَطْلُبُونَ مِنَ الْمَخْتَارِ مُعْجَزَةً؟
يَكْفِيهِ شَعْبٌ مِنَ الْأَمْوَاتِ أَحْيَاءُ

محمود عليم



عبقريّة الإلهام

كان النبي ﷺ يعيش مع أصحابه بنفسية الأب، أو قل: نعلم الملهمة، الذي يتأمل طويلاً في صحبه واحداً واحداً، ثم يبرّ في كل واحد منهم المعنى الذي إن أثير كما ينبغي، تفجّرت به طاقاته، وحوّلت إلى قوة دافقة.

كان يُبصرُ ذلك الفارس الشجاع، فيخبره بأن شجاعته درة. فتصاعف بذلك همته، ويغدو هزيراً يزار في أوجه أعداء الإسلام

ويرى ذلك الشاعر الفحل، فيعلمه أن شُكراً خاصاً أنه من ملك الملوك على بيتٍ قاله، فتحوّل أحرف ذلك الشاعر إلى قذائف تُقَصّ مضاجع أناس لا يرجون الله وقاراً.

وبسمع ذلك التالي المُحبّد للقرآن، فيأتيه بته، ويُقرئه شيئاً من القرآن، فتمضي الأيام، فيغدو أشهر قراء القرآن عبر التاريخ.

وهكذا كان النبي ﷺ، ناصحاً رُوح الحياة في قلوب

مَنْ حَوْلَهُ، فَيُخْرِجُهُمْ بِذَلِكَ مِنَ الْهَامِشِ إِلَى الْمَتْنِ، وَمِنَ
الْإِنْفِعَالِ إِلَى الْفَاعِلِيَّةِ!

لَقَدْ نَقَلَ مُوَاعِبَهُمْ مِنْ دَائِرَةِ الْمَيُولَاتِ الشَّخْصِيَّةِ، إِلَى حَقْلِ
النَّاتِئِ وَالْبِنَاءِ!

نَقَضَ عَمَّنْ حَوْلَهُ الْعَادِيَّةَ، وَالْبَسَهُمْ ثِيَابَ الْعِظَمَةِ!
وَصَدَقَ الشَّاعِرُ حِينَ قَالَ:

هَلْ تَطْلُبُونَ مِنِّي الْمَخْتَارَ مُعْجِزَةً؟
يَكْفِيهِ شَعْبٌ مِنَ الْأَمْوَاطِ أَحْيَاءُ

❧ الشَّاعِرُ؟

قَرَأْتُ قِصَّةً فِي سِيرِ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ، فَأَذْهَلَنِي مَا لِهَذَا الْإِنْسَانِ
الْعَظِيمِ مِنْ قُدْرَةِ خَلْقَةٍ عَلَى فِعْلِ الْعَجَائِبِ فِي نَفُوسِ أَصْحَابِهِ؛
تَقُولُ الْقِصَّةُ:

إِنْ قَافِلَةٌ حُجَّاجٍ انْطَلَقَتْ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يَهَاجِرَ
النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَكَانَ مَعَهُمُ السَّيِّدُ الْعَظِيمُ الْبِرَاءُ بْنُ
مَرْوَرٍ ؓ وَأَرْضَاءُ، فَلَمَّا بَلَغُوا مَكَّةَ، أَرَادَ الْبِرَاءُ أَنْ يَأْتِيَ النَّبِيَّ
ﷺ لِيَسْأَلَهُ عَنْ أَمْرِ مَا، فَأَخَذَ مَعَهُ ابْنَ أَخِيهِ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ

(وكان شاعراً)، فلما وصل إلى المسجد، سألا أحدهم عن النبي ﷺ، فهما لا يعرفاه، فسألها ذلك الرجل: أتعرفان العباس؟ فقالا: نعم، فقال: فهو جالسٌ معه في المسجد..

فدخل المسجد الحرام فإذا هما بالعباس والنبي ﷺ بجواره، فذهبا وسلما، فسأل النبي ﷺ العباس: هل تعرفهما؟ فقال: نعم؛ هذا البراء بن معرور سيّد قومه، وهذا كعب بن مالك، فقال النبي ﷺ: الشاعر؟ يقول كعب بعد ذلك: فوالله، ما أسي قول رسول الله ﷺ: الشاعر؟^(١)

ما أجمل الكلمات التي تملئها الرُّعود، ويكتبها المطر!

وكأي برداذٍ يفوحُ برائحة الغيوم، يملأ نفس كعب بن مالك بعد كلمة: «الشاعر؟».

ليس ذكاءً، وإنما عبقرية فذة، وهداية نورانية، استطاعت أن تأتي بكلمة واحدة: «الشاعر؟» فتحوّلها إلى جزء لا يتجزأ من تاريخ كعب بن مالك.

وكانه عليه الصلاة والسلام كان في تلك اللحظات، وهو بعد في مكة، يخطط لتفاصيل الحياة الفكرية في المدينة،

(١) ذكرها الذهبي في سيرة الصحابي البراء بن معرور.

وأنه سيحتاج إلى عددٍ من الشعراء ليُعِيدُوا صياغةَ الذهبيةِ
المسلِمة، وليطَبِّعُوا بالفضائل التي ستمتلى بها أشعارُهم شيئاً
من أضرار الجاهلية، فلم يَفُوتِ المناسبةُ التي يستطيع بها أن
ينقلَ شاعراً من هامشِ التأثير، إلى متنِ التأثير.

عَمَّا يَهَرُّ كثيراً في شخصية النبي ﷺ: قدرتهُ على قراءة
مكوّناتك في جزء من الثانية، ثم قدرته أيضاً على انتخاب
خَصْلَةِ العظْمة فيك، فينفخها بشيء، أو اهتمام، أو بَلَقَتْ نظراً
فيحوّلك إلى عظيمٍ تحتلُّ صفحة مهمة في سجلِّ النبوغ.

❦ الْمُنْبِرُ الْمَلَانِكِيُّ

ربما أنا أتينا على ذِكْرِ الشعر، فلنعرِّج على تلك الخاتمة
الفريدة، وذلك الصادح بالحق، وما الذي فعله النبي ﷺ معه،
وكيف استطاع إعادة تشكيل موهبته ليغدو الأوحى في فنّه،
والأبرز في بابِه!

يأتي النبي ﷺ إلى المدينة، فإذا بأوجهٍ جديدة، ومواهبٍ
جديدة، ومعادنٍ جديدة، تحتاج إلى إعادة تشكيل وقولبة،
بكيفية تضمن لتلك المواهب أن تتألق، وأن تتوجّه لخدمة

الدين، والدُّود عن حياضه، فإذا بحسَّان بن ثابت، ذلك الشاعر الذي تبلورت موهبته قبل الإسلام بعدة ليست باليسيرة، فيخرجه النبي ﷺ من وصفِ الباقية، والتغزل بالمحبوبة، والوقوف على الأطلال، ليغدو شِعْرُهُ كَتِيبَةً إعلامية تذكُّ الصرخَ النفسي لكفار قُرَيْش، فتجعله قاعًا صفصفا لا ترى فيه عَوْحًا ولا أمتًا! ولكن كيف حدث ذلك؟!

يطلب النبي ﷺ من فرسان الشعر في المدينة أن يهجُوا كفَّارَ مَكَّةَ، لتغدو الكلمة سهماً يُرمى به في سبيل الله، فيأتي الشعراء، لا يرعى النبي ﷺ عن نبرة الهجاء التي في شعرهم؛ فهو عليه الصلاة والسلام أعلمُ بكفار قُرَيْش، وبالذي يَنكأ قلوبهم، وهذا الشعر الذي استمع إليه لبس من الحثامة التي تناسب هذا الغرض!

فيرسل النبي ﷺ إلى حسَّان بن ثابت، فيأتي يدلِّعُ لسانه حماساً، ويقول شِعْراً يصيب المَعَزَّاء ويكون على قُرَيْش كَرَشِقِ النَّبْلِ، فيقول النبي ﷺ: «هجاهم حسَّانُ فشفى واشتفى»^(١).

(١) رواه مسلم.

ونمضي الأيام، فيقربُ النبي ﷺ منبرُهُ الخاص لحسان
ليصعد عليه، ولا أحد يصعد عليه إلا حساناً ويقول له:
«اهجهم وروح القدس يؤيدك!»

إن تشكيل صلصال النفوس مهمةٌ جدُّ صعبة، ولا يُطيقها
إلا أولو العزم من البشر! وقد كان النبي ﷺ سيدهم ولا شك.

جبريلُ الذي ينزل للمهمات الخاصة جدًّا؛ مثل: إنزال
الوحي على الرسل، أو تدمير القرى الظالمة: يات يهبطُ
خصيصي لأجل تأييد حسان بن ثابت بالمعاني والكلمات
والقوافي!

فحوّلت تلك الكلمات، وذلك التأيد الخاص حسانَ
إلى الرجل الذي كانت قوافيه أوقع على المشركين من النبيل؛
فصارت قصائده جنودًا، وشعرُهُ غزوةً مباركة، وأبياتُهُ سهامًا
تنخر معنويات أعداء النبي ﷺ!

وبات حسان بعد ذلك موقنًا لمغازيه عليه الصلاة والسلام
ومشاهديه، حتى إذا ما قرأت شعرُهُ كأنك حاضرٌ بدرا، وأحدًا،
وفتح مكة، وباتت تلك الموهبة الضائعة بين وصف الرحلة
ووصف المرأة موهبة تقود صاحبها إلى جنان الخلد بإذن الله!

﴿ لِيَهَيِّكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ ﴾

يَحْدُثُ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ أَبِي بِن كَعْبٍ ؓ عَنْ قِصَّةِ ذَلِكَ
الْمَلَكِ الْعَظِيمِ مَعَهُ، فَيَقُولُ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا
الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟».

ليس سؤالاً عابراً، إنه السؤال الذي ينقلُ المسؤولَ من
طَنَةِ الرَّمَادِيَةِ إِلَى دَائِرَةِ الضَّوءِ، وَبِحَوْلِهِ مِنْ شَخْصٍ عَادِيٍّ
إِلَى شَخْصِيَّةٍ غَيْرِ عَادِيَّةٍ!

يَقُولُ أَبِي: فَقُلْتُ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، قَالَ:
فَصَرَبَ صَدْرِي، وَقَالَ: «لِيَهَيِّكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ»^(١).

لَقَدْ نَمَّ إِعَادَةُ إِنتَاجِ الرُّوحِ بِنَجَاحٍ، وَتَمَّ التَّحَوُّلُ وَفَقَّ
قَوَاعِدُ الْإِلْهَامِ!

لَقَدْ أَخْرَجَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ أَبَا الْمُنْذِرِ مِنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ إِلَى
الْعَبَثِ مَعَ الْقُرْآنِ، وَمَا زَالِ يَصْحُو وَيَنَامُ مَعَ آيَاتِ الْكِتَابِ
الْعَزِيزِ حَتَّى جَاءَ الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ!

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

يُخرج النبي ﷺ من بيته قاصداً بيتَ أبي بن كعب، في
رياسة خاصة جداً! زيارة تتضمن رسالة ذات أهمية عالية،
فيطرق عليه الباب، فيخرج أبي فإذا بأدفا لحظات عمره تكون
بانتظاره عند الباب، يقول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ
عَلَيْكَ: لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا...!»^(١).

إن كلمة «اندهاش» تبدو متواضعة جداً إذا ما قارناها:
بما شعر به أبي ﷺ، يقول أبي مختصراً سبب ذلك الاندهاش
الغريب:

اللهُ سَمَانِي لَكَ؟

أي: ذَكَرَنِي بِاسْمِي، اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ: أَبِيُّ بْنُ كَعْبٍ؟!
فيقول النبي ﷺ: «نَعَمْ، اللهُ سَمَاكَ لِي».
فيكي أبي..

ولماذا لا يكي أبي؟

ماذا صَنَعْتَ تِلْكَ الْكَلِمَةَ، وَتِلْكَ الضَّرْبَةُ الَّتِي عَلَى صَدْرِهِ،
و«نَعَمْ سَمَاكَ»؟ ماذا فَعَلْتَ بِأَبِي؟

(١) صحيح ابن حبان.

لقد صَعَتْهُ تِلْكَ اللَّمَسَاتُ الْمَلِيْهَمَةُ مِنَ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ،
وَنَشْأَتُهُ إِشْأَةً خَاصًّا، وَحَوَّلَتْ خَطَّ حَيَاتِهِ مِنَ الْأَفْقِيِّ
الْأَرْضِيِّ إِلَى الْعُسْرِيِّ السَّمَاءِيِّ.

﴿ حَتَّى أَوْلَتْكَ ﴾

بل حتى أولئك الذين يخفضون رؤوسهم في مجامع القوم،
يوارون عيبًا في شخصياتهم، وإعاقة تصبُّغ أوجْهِهم بِخُمْرَةِ
حجل. يُتَبَيَّنُ لِلرَّيْمِ بِرُوحِهِ الْعَظِيمَةِ، ثُمَّ يَنْفَخُ فِي ذَلِكَ الْعَيْبِ
نَسِيرَةً، فَلَا يَطُولُ زَمَنٌ حَتَّى يَغْدُوَ ذَلِكَ الَّذِي يَخْفِضُ رَأْسَهُ
رَافِعًا لَهُ، وَتَحْوِلُ الْيَدُ الْبُورِيَّةُ الْحَانِيَّةُ ذَلِكَ الْعَيْبَ إِلَى مِيزَةٍ،
وَتُنْكَ السَّخْلَبَةُ إِلَى تَمْدَحَةٍ!

فهذا صفوانُ بن معطلٍ ﴿ع﴾ يستمرُّ النَّبِيُّ ﷺ يُقَلُّ نَوْمُهُ لِيَكُونَ
دَائِمًا فِي أَحْرِ الرَّكْبِ، فَيَحْمِلُ أَيَّ مَتَاعٍ سَقَطَ مِنَ الْجَيْشِ، وَكَانَ هُوَ
الرَّجُلُ الَّذِي وَجَدَ فِي طَرِيقِهِ عَائِشَةً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وهذا عبدُ اللَّهِ بن أمِّ مكتوم الأعمى، يَغْدُو مُؤَذِّنَ النَّبِيِّ ﷺ،
وَالرَّجُلُ الَّذِي يَسْتَخْلِفُهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمَدِينَةِ فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ.

وَيَأْتِي عَلَى بَعْضٍ مِنْ بِهِمْ مَنَقَصَةٌ مَا، فَيَلْفِتُ أَنْظَارَ مَنْ حَوْلَهُ
إِلَى أَشْأَةٍ جَمِيلَةٍ فِي رُوحِهِ؛ لِيَمْحُوَ الْجَاهِلِيَّةَ الْعَالِقَةَ بِأَطْرَافِ

نفوسهم، ويُذَيِّبُهَا فِي كَاسٍ مِنَ الْإِيمَانِ.

فهذا عبدُ الله بن مسعود، تكشف الريحُ ثوبَهُ، فيضحك الناسُ لدَقَّةِ سَاقِيهِ، فيحوِّلُ الرجلُ المَلِهُمُ تلكَ السَاقِيَيْنِ إِلَى مِثَارٍ فخرٍ واعتزاز عند ابن مسعود؛ بقوله عليه الصلاة والسلام: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهَا أَثَقُلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ جَبَلٍ أُحَدِّثُ^(١)».

وهذا جُلَيْبٌ، ذو الوجهِ الذي لا يرتاح له الناسُ، يقفُ النبيُّ ﷺ وقفة خاصة عند استشهاده، ويقول للناس: «وَلَكِنِّي أَفْقِدُ جُلَيْبِيَا^(٢)»؛ لِيَفْهَمَ النَّاسُ أَنَّ الْقَضِيَّةَ قَضِيَّةُ أَرْوَاحِ مُؤْمِنٍ. لا أوجه جميلة افتضُّلَ لديهم قيمة الوسامة والتناسق الخَلْقِي في مقابل تصاعد قيمة القلب الذي يَنْبُضُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

وهذا زاهرٌ، رَجُلٌ مِنَ الْبَادِيَةِ، يُشَبِّهُ رِمَالِ (النَّفُودِ)، يُقْبَلُ إِلَيْهِ وَيَحْتَضِنُهُ أَمَامَ جَمْعٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، يُوَدِّعُ كُلَّ وَاحِدٍ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي عَانَقَهُ النَّبِيُّ الْعَظِيمُ، ثُمَّ يَقُولُ مَازِحًا: «مَنْ يَشْتَرِي الْعَبْدَ؟ مَنْ يَشْتَرِي الْعَبْدَ؟^(٣)».. فيقول زاهرٌ: إِذَنْ تَجِدَنِي كَاسِدًا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فيقول النبيُّ ﷺ: «وَلَكِنَّكَ عِنْدَ اللَّهِ لَسْتَ بِكَاسِدٍ»، هُنَا

(١) صحيح ابن حبان.

(٢) رَوَاهُ الْيَهُودِيُّ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ.

(٣) خبر زاهر أخرجه أحمد وغيره، وهو على شرط الشيعين.

تَمَتَّتْ بِقَايَا الْجَاهِلِيَّةِ تَمَامًا، وَتَهَبُّ نَسَائِمُ: «إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ
أَنْفَاكُمْ»؛ لَتَعَثَّ هَشِيمَ الْجَاهِلِيَّةِ فِي صَحْرَاءِ النِّسْيَانِ.

❧ الْأَبْرَاجُ الْمَشِيدَةُ

وَمَا زَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَشُرُّ كَلِمَاتِهِ الْمَلْهِمَةَ، الَّتِي تَحْوُلُ ذَلِكَ
الطِّينَ الْبَشَرِيَّ إِلَى أَبْرَاجٍ مَشِيدَةٍ، فَيَرْجِعُ إِلَيْهَا الْبَصَرُ فَلَا يَرَى
فُطُورًا.

فَيَرَى اهْتِمَامَ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ بِالْعِلْمِ، فَيُوقِعُ لَهُ بِأَن: «مُعَاذًا
يَسْبِقُ الْعُلَمَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِرَثْوَةٍ»^(١)

وَيَرَى انْكِسَابَ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ عَلَى تَعَلُّمِ الْفَرَائِضِ، فَيَهْمِسُ
بِأَن: «أَفَرَضَكُمْ زَيْدٌ»^(٢).

وَيَرَى قَلْبَ أَبِي عُيَيْدَةَ الْمَعْجُونِ بِالْأَمَانَةِ، فَيَقُولُ عَنْهُ: «أَمِينُ
هَذِهِ الْأُمَّةِ»^(٣).

وَتَبَهَّرَهُ بِسَالَةِ طَلْحَةَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَيَعْلُقُ عَلَيْهِ وَمَسَامَ: «مَنْ سَرَّهُ

(١) رَوَاهُ ابْنُ عَسَاكِرٍ فِي تَارِيخِ دِمَشْقَ، وَصَحِّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ بِمَجْمُوعِ طَرَفِهِ

(٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَحَسَنَهُ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْفَتْحِ

(٣) رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَصَحِّحَهُ شُعَيْبٌ.

أَنْ يَنْظُرَ إِلَى شَهِيدٍ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى طَلْحَةَ
بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ^(١).

وَسَأَلَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ أَسْعَدِ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،
فَزَيَّدَهُ نَهْمَةً فِي الْعِلْمِ بِقَوْلِهِ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ إِلَّا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا.
الْحَدِيثُ أَحَدُ أَوَّلِ مَنْكَ^(٢)».

وَيُشْعَرُ بِصِدْقِ أَبِي ذَرٍّ الَّذِي تَجَاوَزَ كُلَّ صِدْقٍ، فَيَقُولُ عَنْهُ:
«مَا أَقَلَّتِ الْغَبْرَاءُ مِنْ ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقَ مِنْ أَبِي ذَرٍّ^(٣)».

وَيَلْمَحُ سَيْفَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ الَّذِي سَلَّطَهُ اللَّهُ عَلَى الْأَعْدَاءِ..
فَيَقُولُ عَنْهُ: «سَيْفٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ^(٤)».

وَيَنْظُرُ فِي قَلْبِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ مِنَ الزَّكَاةِ وَالنِّقَاءِ، فَيَقُولُ:
«نِعَمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ! لَوْ كَانَ يُصَلِّيُ مِنَ اللَّيْلِ^(٥)».

يَقُولُ عَنْهُ أَصْحَابُهُ: فَكَانَ ابْنُ عُمَرَ بَعْدَهَا لَا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ
إِلَّا قَلِيلًا

(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ.

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

(٣) رَوَاهُ الْحَاكِمُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

(٤) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

(٥) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

وهكذا يسير بين أصحابه، ويلقي بكلمات الثناء والشجيع؛
ليصنع ذلك الجيل الذي من الصعب، بل المستحيل أن يتكرر،
الجيل الذي لا وجود فيه لشخص لا ميزة له!

لم يحرص عليه الصلاة والسلام على إخراج أحد من
أصحابه من حيزه الذي خلقه الله فيه وله، وإنما وظفه، وأنعم
حصانه، فبانت تمور وتدور حول معاني الفضيلة، وحول
حماية حجاب الدين، وحول الدفاع عن نبي الإسلام الأعظم.

وهكذا تستمر هذه الاشرافات التي صنع بها حيلًا لم يتكرر
في التاريخ، وهي نسي عن شخصية قائدة، تستطيع أن تُبِكَ
صلصال الأرواح، ثم تملكه وفق مقاييس الجودة العالية،
ليغدو من حوله جبالًا في الجبال، وبحارًا في البحار.



رَحِيقُ الْبِرَاءَةِ

«خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي:
«أَفٍّ» قَطُّ، وَمَا قَالَ لشيءٍ صَنَعْتُهُ: لَمْ صَنَعْتُهُ؟
وَلَا لشيءٍ تَرَكْتُهُ: لَمْ تَرَكْتُهُ؟»

أنس بن مالك

رَحيقُ البراءةِ

قد نظنُّ وأنت تقلُّبُ أوراقَ سيرة النبي محمد ﷺ أن تلك
التفاصيل السachte، وتلك الأحداث المتابعة: ستملا حياته
لدرجة سيكون صعباً معها أن يتحدثَ في يومٍ من الأيام مع
صبيٍّ، أو أن تسيلَ دموعه بسبب طفلٍ يجودُ بنفسه، أو أن
يداعبَ صغيراً في السن!

ستُعدّ تقليبك لأوراق أيام هذا النبي الأعظم. أنه لا
يكاد يكون هاك شيءٌ من النبيل إلا وله في حياته مكانٌ ومكانة،
بل إنك إن دقتَ فيه، اجتالنتك مشاعرٌ تجعلك نظنُّ أن هذا
الخلق أو هذه الصفة هي الأهمُّ والأبرز، بل هي التخصُّصُ
الوحيد الذي اعتنى به النبي ﷺ اعتناءً خاصاً.

وفي هذه الأسطر، سنرى النبي وهو يخوض الحياةَ
بتفاصيلها، فكما أنه يتحمَّلُ مهامَّ نشر الدين بكل ما يكتنفُ
ذلك من أتعابٍ وإجهادات، فهو كذلك يحمِلُ الطفل الصغير،
ويُباغي الرأفة، ويمسح رؤوس الأيتام.

❧ أَذْهَبَتْ؟

من أشهر أطفال الصحابة: «أنس بن مالك»؛ فقد مكث حادماً عند النبي ﷺ عشر سنين، فنقلَ صوراً من تعامله عليه الصلاة والسلام مع الأطفال، تجعل النظريات التربوية تبدو مدائية بإزاء ما كان يعملُه مع أصغر طفلٍ في المدينة!

يفاجئُ النبي ﷺ أصحاب الأوامر والنواهي بأسلوبٍ تسقطُ به تلك الأوامر والنواهي! يقول أنس: "خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي: «أَفْ» قَطُّ، وَمَا قَالَ لشيءٍ صَنَعْتُهُ: لَمْ صَنَعْتُهُ؟ وَلَا لشيءٍ تَرَكْتُهُ: لَمْ تَرَكْتُهُ؟" (١).

لا يمكنُ أن يكون أنس رضي الله عنه ملكاً لا يخطئ! من المؤكد أن هناك ما يدُّ عنه؛ فهو طفلٌ، والطفولة مقترنة بشيءٍ من الأخطاء العابرة، والتعثرات السيرة، فترك الرجلُ النبيل تلك الأخطاء والتعثرات تصقلُ شخصية أنس، وتصنع نظرتَه الخاصة، فلم يعتقه في يوم، بل لم يُبِد ملاحظةً على تصرفاته الطفولية!

وفي إحدى المرات، يرسلُه لحاجة، فيخرجُ ويلقى في طريقه

(١) رواه الترمذي، والحاوي ومسلم بحواه.

صبيانًا يلعبون، فيشغل عن حاجة النبي ﷺ بأولئك الصبيان،
 فيلعب معهم كما تفعل الطفولة دائمًا، لا شيء يشيها عن اللعب،
 ولا أهمية لشيء تفوق أهمية المرح، فيخرج النبي ﷺ فيراه وقد
 اصطبغ بالسعادة، فيذهب إليه من خلفه، ويُعِيكَ بقفاه، ثم
 يقول له: «يا أُنَيْسُ، أَذْهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟»، فيقول: نعم أنا
 أَذْهَبُ يا رسول الله.

هل هذا وقت أن يدلّكه بـ «أُنَيْسٍ»؟ أهذا وقت أن يُعِيكه
 من قفاه بلُطْفٍ؟!

لدى هذا الرجل النبيل وقتٌ لفعل كل حيل، وقدرةٌ
 عجيبة على أن يكون إنسانًا راقيًا في كل مواقف حياته، وأن
 يكون أنيقًا لدرجة يلجأ معها الدهول!

❧ يا أبا عُمَيْر

وكان عليه الصلاة والسلام يجذُّ في صخب الحياة وقتًا
 كافيًا ليداعب أولئك الصغار المنشرين في أزقة المدينة،
 وأن ينحني ليمسح على رؤوسهم، وأن يزرع الابتسامة في
 نفورهم الصغيرة!

(١) رواه مسلم

امتقد النبي ﷺ مرةً أبا عُمَيْر (أحد صبيان المدينة)، فسأل عنه، فقبل له: مات عصفورُهُ الصغير، فذهب إليه معزياً، وقال له: «يا أبا عُمَيْر، ما فعل النُّغَيْر؟»^(١).

حتى الهموم الصغيرة كان يستطيع أن يجد في قاموسه كلمات تناسيها، ولمسات تهددها

يقول أنس: «ربما قال لي النبي ﷺ (ممازحاً): يا ذا الأذنين»^(٢).

إنها العذوبة التي لم يسمع عنها كثيرٌ ممن يظنُّ الحياة لا تستقيم إلا بالصرامة

كان يقول عن الحسن والحسين عليهما السلام: «هما رَئِحاتاي من الدنيا»^(٣).

يلتقط أبو هريرة لقطةً نادرة، امتلأت بشيئين: بالعفوية، والعظمة؛ يقول عليه السلام: «كان رسولُ الله ﷺ يدلِّعُ لسانَهُ للحسن بن علي، فيرى الصبيُّ حمرةً لسانه، فيَهشُّ إليه»^(٤).

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه أبو نادر.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه ابن حبان في صحيحه.

لا تستغرب من الرجل الذي كان يقف كالأسد في كبد
المعارك، ويرفع سيفه في وجوه وحوش البشر، أن يكون هو
سبه الرجل الذي يدلع لسانه للحسن، إنه الرجل النبيل
الذي جعل الحب في متناول الجميع.

عَنْبُ الطائِفِ

كان الأطفال يعرفون جيدًا أنهم مع إنسان يفهم مشاعرهم،
ويعرف جيدًا احتياجاتهم؛ لذلك فهم لا يهربون منه في
الطرق، ولا يكذبون عليه إن مادّت بهم طفولتهم ذات يوم.

يحدثنا العمان بن بشير عن قصة حدثت له وعمره لم
يتجاوز ثمانين سنوًا؛ يقول: أهدني لرسول الله ﷺ عَنْبٌ من
الطائف، فقال: «خُذْ هَذَا الْعُنْقُودَ فَأَبْلِغْهُ أُمَّكَ»، قال: فأكلته
قل أن أبلغه إياها، فلما كان بعد ليالٍ، قال: «ما فعل العنقود؟»
هل بلعته؟!، قلتُ: لا، فسأني عُدْرًا^(١).

هكذا بكل بساطة، لا دروس في الأمانة، ولا محاضرات
في أهمية طاعة الكبار، يقرص أدنه بحنان، ويلقبه عُدْرًا كما

(١) رواه ابن ماجه

يفعل الرحاء مع الأَطْعَمَالِ الأَشْفِيَاءِ، أُولِي المَلَامَحِ البَرِيئَةِ حَدًّا،
والتَصَرُّفَاتِ اللَّذِيذَةِ جَدًّا.

❧ بل يستحيل..

ناتية طفلة صغيرة، اسمها أُمَامَةُ بنت العاصِ، وهو يصلي،
فتعلّق بعاتقِهِ، فإذا سجد وضَعَهَا، وإذا قام حَمَلَهَا^(١).

إذا أردتَ أن تُشِيعَ النُّبْلَ بين الناسِ، فلا تَحَدِّثْهُمْ عن الحانِ
والرحمة والأبوة؛ يكفي أن تَحَدِّثْهُمْ عن ذلك الرجلِ النبيلِ
عليه الصلاة والسلام.

يذهب إلى الصلاةِ ومعه الحسنُ والحسينُ، فيصلي بالناسِ،
فيُطِيلُ إحدى السُّجَدَاتِ، ثم بعد الصلاة يسأله الصحابةُ عن
تلك السجدة الطويلة، ويخبرونه أنهم ظنُّوا أمرًا ما عَرَضَ له،
أو أن وحيًا ما أوحىَ إليه، فيخبرهم - بأبي هو وأمِّي - أن
القضيةَ أيسرُ من كل هذا: «كُلُّ ذلك لم يَكُنْ؛ إن ابني هذا
ارتحلني، فكِرِهْتُ أن أعجِلَهُ حتى يقضيَ حاجته»^(٢).

(١) الخبر في البخاري ومسلم.

(٢) رواه أحمد وغيره بألفاظ متقاربة.

ها يمكنك أن تندهش إن شئت! فهذه صلاة، وهؤلاء
 ناس حاضرون ليصلُّوا. رمع ذلك فالطفولة تتحدد كيفما
 شاءت، لا شيء يعكّر صفوها الجميل، بل إنه عليه الصلاة
 والسلام لم يَسْمَح لحفيده أن يرتحله في الصلاة فحسب، بل
 طَوَّل في السجود حتى تَمَّ لذلك الطفل مسعاده؛ فيروى
 حناناً، ويمتلى أماناً.

كان عليه الصلاة والسلام يستخدم الطفولة الجميلة ليستزع
 بها الوحشية من قلوب البشر شوكة شوكة، يجلس معه أحد
 الأعراب، فيدخل في هذه الأثناء الحسن (رضي الله عنه) وهو بعد طفل
 صغير، فيقبله النبي (ﷺ)، فيسأل ذلك الأعرابي بفضاظية:
 أتقبلون الأطفال؟ إن لي عشرة منهم ما قبلتهم!

يظن أن ذلك من برونوكولات الرّجولة! ويعتقد أن الحياة
 أضيئ من أن تتحمل قبلة على خد طفل! فيأتي معلّم الناس
 الحنان ليقول لذلك الأعرابي: «أملك أن نزع الله الرحمة من
 قلبك؟!»^(١).

(١) رواه البخاري ومسلم.

إنها الرحمة التي جعلت رحيق الإنسانية المتمثل في الأطفال
يشكل جزءاً من اهتمام ذلك القلب الكبير.

كان يحبهم، ويسمّيهم، ويلقبُ بعضهم، ويداعبهم، ويحنّكهم
عند ولادتهم، ونسيل دموعه عند لقطات الوجع التي تصيبهم.

إنه الرجلُ النبيل، الذي اتسع قلبه لكل ما هو إنساني،
وبات أيقونة الإنسان العظيم، الذي لا يصعبُ أن يتكرّر، بل
يستحيل!



رائحة المَطر

«لَأَقُولَنَّ شَيْئًا يُضْحِكُ النَّبِيَّ ﷺ»

عمر بن الخطاب رضي الله عنه

رائحة المطر

لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، لَمْ يُرِدْهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ إِصْرًا وَغُلًّا عَلَى الْبَشَرِيَّةِ، بَلْ أَرَادَهُ أَنْ يَكُونَ نَسِيمًا يَهْبُ عَلَيْهِمْ بِحَنَانِهِ وَرَحْمَتِهِ، أَرَادَهُ أَنْ يَكُونَ جَمَالًا وَكَمَالًا وَحِلَالًا تَشْوِقُ إِلَيْهِ الْأَرْوَاحُ، فَجَاءَ وَجَاءَتْ مَعَهُ الْإِبْتِسَامَةُ؛ بِكَ السُّخْرُ الَّذِي يَجْعَلُ النَفُوسَ تَهْفُو، وَالْأَرْوَاحَ تَحْنُ، وَالْأَفْئِدَةَ تَحْمُقُ.

كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَسَامًا.. يَثُرُ إِبْتِسَامَاتِهِ وَضَحِكَاتِهِ بِعَادِيَّةٍ لَا تُشَبِّهُهَا عَادِيَّةٌ، وَكَأَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ: كُونُوا كَمَا أَنْتُمْ، اضْحَكُوا، ابْتَسِمُوا.. فَالْحَيَاةُ سَوْدَاءُ دُونَ قَهْقَهَاتِ بَرِيئَةٍ، وَالْأَرْقَةُ ضَبُّقَةٌ جَدًّا دُونَ مَلَامَحَ مَشْرِقَةٍ، وَالنَّفُوسُ مَتَعَبَةٌ دُونَ عَادِيَّةٍ تَدْفِنُ التَّعْثِيلَ الزَّائِفَ، وَالتَّزْوِيقَ الْكَاذِبَ، وَالتَّصْنُعَ الْبَارِدَ الْبَاهِتَ.

فَتَمَطَّرُ الْحَيَاةُ

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ذَاتَ يَوْمٍ وَقَدْ رَأَى كَدْرًا يعلو وَجْهَ سَيِّدِ اللَّهِ: «لَا قَوْلَنَ شَيْئًا يُضْحِكُ النَّبِيَّ ﷺ».

(١) الفصحة في مسلم.

عجيباً ما أجله من إسان يعرف من حوله محتاج
إبتسامته، بل يعرفون أنه يتسم ويتصحك حتى تبدو نواجذه
إن الدهول يسحب كرسياً ثم يجلس إزاء هذا العظيم
ويتأمل ملامحه

قولوا للمتجهمين، أولئك الذين يعقدون بين حواجبهم
لإشاعة الهيبة في قلوب من حولهم: لقد جاء محمد، وانتهى
مفعول هيبتكم الزائفة! جاء محمد؛ فانصرفوا.
جاء الرجل الذي بشر الابتسامة فيمن حوله، فترجر
الأرواح.

يقول جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه: «ما رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم
مذ أسلمت إلا تبسم في وجهي»^(١).

أي دفع كان يستشعره جرير والنبي الأكرم يلقاه في ذهابه
ولايابه بابتسامته، فتمطر في روحه الحياة^{١٩}

ويأتي عبد الله بن الحارث بن جزي رضي الله عنه يُلبي بشهادته
الغريبة، وهو الرجل الذي عاصر مئات بل ألوف البشر،
وخبر طبائعهم، ورأهم في رضاهم وغضبهم، فيقول: «ما

(١) البوصيري في إتحاف المهرة، ورواه ثقات.

رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَسْمًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(١).

إِذَا، مَا قِيَمَةُ تَصْنَعِ الْمَهَابَةِ، وَتَقْطِيبِ الْجَبْهَةِ، وَهَذَا أَهْيَبُ
إِنْسَانٍ تَكَادُ تَكُونُ الْإِبْتِسَامَةُ مَلَا زِمَةً لِقَسَمَاتِ وَجْهِهِ الْوَضِيءِ؟!

وَهَذَا سِمَاكَ مِنْ حَرْبٍ، تَابِعِي، أَرْحَمَ الشُّوقِ إِلَى الْحَبِيبِ
مُحَمَّدٍ ﷺ فَوَازِدَهُ، يُقْبَلُ عَلَى جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، يَرِيدُ أَنْ يُشْبِعَ
أَشْرَافَهُ، فَيَسْأَلُهُ: أَكُنْتَ تَجَالِسُ النَّبِيَّ ﷺ؟ فَيَجِيءُ الْجَوَابُ مِنْ
حَاظِرٍ صَادِقًا وَمَهِيئًا أَعْمَاقَ أَعْمَاقِهِ: «نَعَمْ كَثِيرًا».

وَمَا أُحْرِقُ «كَثِيرًا» هَذِهِ عَلَى نَفْسِ سِمَاكَ مِنْ حَرْبٍ، وَكَأَنَّ
شَيْئًا فِي دَاخِلِهِ يَقُولُ: وَدِدْتُ مَا لَوْ ظَفِرْتُ بِقَلِيلٍ!

ثُمَّ يَرِيدُ جَابِرُ أَنْ يُلْخِصَ «كَثِيرًا» تِلْكَ فِي وَمُضَةٍ خَاطِفَةٍ،
تُخَصِّرُ عُمرًا قِضَاءً مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَا يَجِدُ إِلَّا الْإِبْتِسَامَةَ عُنْوَانًا
لِلَّذَلِكَ الْعُمرِ الْحَاقِلِ بِالْجَمَالِ؛ يَقُولُ ﷺ: «كَانَ لَا يَقُومُ مِنْ مِصْلَاهُ
الَّذِي يَصَلِّي فِيهِ الصَّبِيحَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، فَإِذَا طَلَعَتْ قَامَ،
وَكَانُوا يَتَحَدَّثُونَ، فَيَأْخُذُونَ فِي أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَيَضْحَكُونَ..
وَيَنْبَسِمُونَ»^(٢).

(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ.

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

لم يكن الطيب المطيب ينهاتهم عن الأحاديث التي تدور
تفاصيلها حول أيام الجاهلية، وما كان فيها من طيش ونزق!
بل كان يشاركهم بابتسامته الحبيبة، وكأنه توقيع رضا، وختم
موافقة على العادية، وعدم أخذ الحياة بتكلف.

❦ فكرة الابتسامة

والابتسامة فوق كونها خصلة نبوية، وطبيعة محمدية، لا
يمكن فصلها عنه عليه الصلاة والسلام. إلا أنها تنبع أيضاً
من فكرة مفعنة، يختصرها النبي ﷺ في قوله: «إنكم لن تسعوا
الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه، وحسن
الخلق»^(١).

فهو عليه الصلاة والسلام لم يكتفِ بأن جعل الابتسامة
جزءاً لا يتجزأ من ملامحه؛ فقد عَلِمَ أن هناك من الناس من
تقصه موهبة الاقتناص، والتمثل التلقائي؛ فانتقل من الشكل
الجمالي المقنع للابتسامة إلى المعنى الضمني؛ وهو احتواء الناس
وكسبهم؛ فبسط الوجه هو التفسير شبه الحرفي للابتسامة.

(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي التَّرغِيبِ وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

ولهذا! فقد كان السيِّدُ ﷺ يَخْطَفُ الأرواحَ خَطْفًا، ولا يتمالك القادمُ إليه نفسه حتى يغدوَ أحدَ أتباعه؛ ينهل منه العلمَ، والإيمانَ، والابتسامة.

❦ في أحلك الظروف

وإذا أردتَ أن أحدثَكَ بالعجائبِ، فسأحدثُ عن فضالةِ بن عُمر اللِّثي، رجل جاء لمهمَّةٍ صعبة، كانت مهمَّتهُ اعتيالَ النبي ﷺ! وقد كان متقيًا الدورَ الذي جاء لأجله، لدرجة أنه اتحل شخصيَّةَ الرُّحْلِ المسليم، الذي أتى لأجل أن يغسلَ دُوبه بجوار الكعبة المشرفة، وما هو ذا يقتربُ شيئًا فشيئًا من سيِّدِ ﷺ، ويُظهرُ ملامحَ المتخشعِ المتبتِّل، الذي أذهله ذِكْرُ الله عما حوله، فلما انفصلت المسافاتُ بينه وبين النبي ﷺ، وبدُّه متمكِّنة من خنجرِهِ، التفتَ إليه النبيُّ ﷺ وقال له متسائلًا: فضالة؟ فيردُّ بصوتٍ خاشع: نعم فضالةُ يا رسول الله، فيسأله النبيُّ - ولعله كان ينظرُ إلى عينيهِ -: ماذا كنتَ تحدثُ نفسك؟

فيقول فضالة: لا شيء، كنت أذكرُ الله!

لا شيء! أيعقل أنه لا شيء يا فضالة؟

والمعركة التي أضمرتها في داخلك، ما هي؟ ورائحة الموت
 المنعثة من جسدك، ما الذي أتى بها؟ والألحان الجنائزية التي
 تكلل خطواتك، من الذي يعزفها الآن؟ يقول فضالة: فضحك
 النبي ﷺ، ثم قال: استغفر الله.. ثم وضع يده على صدره..
 يقول: فوالله، ما رفعتها حتى ما من خلق الله شيء أحب إلي منه".
 ليس سهلاً أن تبصر حرباً قادمة إليك فتضحك لها! أن
 ترى الجيوش بين أثنائها النقع فتبتسم.. ولكنه محمداً
 ما إعرابُ جملة «فضحك النبي» في هذه القطعة الاغتيالية
 المخيفة؟

ما موقع تلك الضحكة الفريدة من الإعراب؟
 ما المعنى الذي خرج من خلالها؟
 وكيف يمكن لفضالة تفسير ذلك الضحك النبوي العذب
 في هذا الموقف النادر؟
 إنها النفس التي باتت أقوى من الاغتيالات، وأشجع من
 السيوف، وأبعد الشمس!

(١) هناك من يصف هذه القصة، ولكنها بما يذكره أهل السير.

تحت المطر

وهنا انسامة برائحة المطر، وبجمال الغيوم، يحدث عنها أنس (١)، فيقول: أصاب أهل المدينة قحطٌ على عهد رسول الله ﷺ، فبينما هو بخطبنا يوم جمعة، إذ قام رجلٌ، فقال: يا رسول الله، هلك الكراع، هلك الشاء؛ فادع الله أن يسقينا، فمد يديه ودعا، قال أنس: وإن السماء لمثل الزجاجة، فهاحت ريحٌ، ثم أنشأت سحابةً، ثم اجتمعت، ثم أرسلت السماء غرايلها، فخرجنا نحوض الماء حتى أتينا منازلنا، فلم يزل المطر إلى الجمعة الأخرى، فقام إليه ذلك الرجل، أو غيره، فقال: يا رسول الله، تهدمت البيوت؛ فادع الله أن يحبسهُ، فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: «حوالينا ولا علينا»، فنظرت إلى السحاب يتصدع حول المدينة كأنه إكليلٌ^(٢).

لماذا يتبسم؟

ما الرسالة التي يريد أن تصل؟

تُرى ما حجمُ الجمال الذي امتلأت به رُوحه فبات لا يستطيع أن يوارى ابتساماته العذبة؟

(١) رواه البخاري ومسلم.

حتى في اللحظات التي يظنُّها أهلُ الفظاظَةِ مَوْغِلَةٌ في الجِدِّيَّةِ، ويتوقعون أن التزمَّتْ والملامحُ الحجرية هي الأليقُ بها! حتى في هذه اللحظات، كان يتحدثُ بملامحه المبتسِمة، ويدفن صحبَ الموقفِ تحت عينيه اللتين أخفَّتهما ريشةُ الابتسامة بألوانها الزاهية.

❧ يومُ الاثنين

وما زالت الابتسامةُ هي الشفرةُ التي فتح بها النبي ﷺ قلوبَ الناس، والرقم السريُّ الذي دَلَفَ به إلى أرواحهم طَوَالَ حياته، بل وحتى قُبيل موته عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام؛ فقد كانت الابتسامةُ لُغَتَهُ، وطلاقةُ الوجه نَسِيبَهُ الذي يُبْ به على أرواح صحبِهِ الكرام.

يقول أنسٌ رضي الله عنه: «بينما المسلمون في صلاة الفجر من يوم الاثنين، وأبو بكر يصلي بهم، لم يَفْجَأْهم إلا رسولُ الله ﷺ قد كَشَفَ سِتْرَ حَجَرَةِ عَائِشَةَ، فنظر إليهم وهم في صفوفٍ.. ثم تَبَسَّمَ^(١)».

ضَعُ خطأً تحت كلمة «يوم الاثنين» .. أتدري ماذا يريد أن

(١) القصة في البخاري وغيره.

يقول أنس بكلمة «يوم الاثنين» ١٢

إنه يريد أن يقول: إن تلك القصة حدثت في نفس اليوم
الذي مات فيه النبي ﷺ.

حتى والآلام تنهشه، والحمى تهذ جسده، والموت يترأى
له: لم تفارقة الابتسامة بأبي هو وأمّي!

ما مقدار الجمال الذي يحيط بقصة محمد ﷺ؟

كيف استطاع أن يحوّل الابتسامة إلى حزن لا ينحزراً من
سيرته الداتية، وإلى إنحاز من إنجازاته في الحياة؟

كيف تغلّت على لغة الصحراء، واستطاع أن يطمس وجه
الخيمة المكفهر، ويمحو عتبة الجاهلية وتعاطفها؟

كيف وضع النقطة الأخيرة في سجل الفخر الكاذب،
والخيلاء المصطنعة، وأبتدأ السطر الجديد في إنسانية الإنسان؟

أي ثبل ضمته سيرته؟ وأي طهر حوته روحه؟ وأي
ابتسامة كانت ابتسامته؟!



وأظلمت المدينة

«لَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي
مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ»

أنس بن مالك رضي الله عنه

وأظلمت المدينة

ليس سهلاً أن تنطفئ الشمعة الأخيرة، فيعود الظلام
لمزاولة مهته!

ليس بسيطاً أن تُلغى النبضات من قلوب عرّفت لتوها
معنى النبضات، وأدركت قبل قليل مضمون الحياة، وحركة
الدماء الدافقة.

وما هو النبي ﷺ يحزم أمتعته، ويتوجّه في ليلة باردة
الجدران إلى طُرقات المدينة ليسحب الأنوار التي نثرها في
جسبات تلك الدروب العتيقة، ويودّعها حقيقته ويغادر.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي
مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ».

نحن على موعد مع شتاء الفجيعة، وزمهرير الفقد،
وموسم الدموع..

ومات الرجل النبيل..

وماتت معه ابتسامة كانت قد تبرعت في قلب عمر،
واغمضت الهناءة عينيها في نفس أبي ذر، وانسحبت ألوان الحياة
من عيني أبي عبيدة.

❧ وقبري..

يتجهز مُعَاذ بن جبل قبل أشهر من موت النبي ﷺ لمغادرة
المدينة، فيمشي معه النبي ﷺ ليودّعه، ونسائم المدينة تخلق
أريجاً لا تُقنه إلا المدينة.

فيهمس النبي ﷺ لحبيبه الذي قال له قبل مدّة: «والله إني
أحبك يا مُعَاذ».

تَهمس له بِسرٍّ مؤلم: «يا مُعَاذ، إنَّكَ عسى ألا تُلْقاني بعدَ
عامي هذا»^(١).

تتوقف تبضات مُعَاذ، وكل شيء من حوله يصطبغ
بتكهة النواح..

(١) روله ابن حبان في صحيحه.

ثم يكمل السيّد رحمه الله: «ولعلّك أن تمرّ بمسجدي هذا..
وقري فيكي مُعَاذ».

كم هي قاصمة للظهر كلمة «وقبري»، كم هي مُفجعة،
كم هي مُحْرِقة، وكيف استطاعت قوّة مُعَاذ ألا تهوي، وتُعلن
الانهزام في تلك اللحظة الاستثنائية؟

ما قيمة طريق العودة إذا كان الحبيب قد رحل؟

ولماذا معاناة الرحلة، إذا كانت الشمس قد غرّبت؟
ولاسامة قد تزارت؟ و«إني أُحبُّك يا مُعَاذ» قد وُسِّدَتْ
قبرها؟

❧ وداعاً

وفي عَرَفات، وقف النبي ﷺ أمام مشروعه الناجح، وقف
أمام أكثر من مئة ألف إنسان مسلم، كانوا جميعهم قبل عشرين
سنة يسجدون لهبلاً، ويعبدون العُزَّى، ويُعظّمون مَنَاة الثالثة
الأخرى، والآن صاروا يهتفون: لَيْكَ اللَّهُمَّ لَيْكَ.

يقف في نفس المكان الذي نُغصّت حياته فيه، وطُرد منه،
رُحِطَ لاغتياله، وهُتِف فيه بأنه: شاعر، وكاهن، ومجنون،

واليوم مئة ألف يقول كل واحد منهم: أشهد أن محمداً رسول الله

هذه هي الشهادة العالمة، هذا هو الإنجاز الأكثر إبهاراً في تاريخ العالم كله، وفي تلك اللحظات الحاسمة، وأولئك الجموع الذين انتقل بهم من الجحيم إلى جنات النعيم يرقبون ما يقول قائدهم الملهم، فإذا بالصدمة تتغشى الجميع، يُخبرهم بكل وضوح:

«لَعَلِّي لَا أَلْفَاكُمْ بَعْدَ عَامٍ هَذَا»^(١).

لقد أنجزت مهمتي.. وجاء الوقت لأرتاح!

لقد صارت رائحة السماء تهبُّ على الرجل النبل بكثرة. ونسائم الملائكة تُشبعه في كل مكان، وكأنَّ نداءً غلويًا يُخبره: لقد آن لك أن تتدثر بالراحة، بعد ثلاث وعشرين سنة لم تتدثر فيها ولو للحظة، منذ أن أنزل الله عليك: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَآئِرُ الْأَشْيَاءِ فِيكَ قَتْلٌ﴾.

ثلاث وعشرون سنة من الكفاح المُضْ، والجهاد الرهيب.. الآن يُمكنك الجلوس، لقد تعبت بما فيه الكفاية أيها الرجل النبل.

(١) رواه مسلم.

كيف كان وقع: «لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا» على قلب سالم مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ؟ كيف تسَلَّلْتَ إِلَى نَفْسِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ؟ مَا هُوَ شَعُورُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ لَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُهَا، وَكَيْفَ انْهَدَّتْ قُوَى الزَّبِيرِ بْنِ الْعَوَّامِ وَحَبِيبِهِ يُعْلَن: سَوْفَ أَغَادِرُكُمْ قَرِيبًا.

وهكذا أخذت حيوط النور في الاضمحلال، وشيء من برودة الموت يُعْثَمُ الأَحْوَاءَ، ونكهة الفراق الرهيب تُسَيِّطِرُ عَلَى الْمُشْهَدِ، وَ«لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا» تُغْلِقُ عَلَى نَفْسِهَا فِي أْبْعَدِ مَكَانٍ مِنْ قُلُوبِ الصَّحَابَةِ.

❦ وانهمرت الدموع

فِي إِحْدَى الْوَقَفَاتِ الْوَدَاعِيَّةِ، يَقِفُ خَطِيْبًا ﷺ يُرِيدُ أَنْ سَرَحَ، وَلَا يُرِيدُ أَنْ يَبُوحَ.

يُرِيدُ أَنْ يَرِيتَ عَلَى قُلُوبِ أَصْحَابِهِ قَبْلَ أَنْ يُغَادِرَ، وَلَا يُرِيدُ أَنْ يَفْهَمُوا كُلَّ شَيْءٍ فَيُشْعَلُ فِي أَرْوَاحِهِمْ لَهيبُ الْوَجَعِ.

فَقَالَ بِرَمْزِيَّةٍ لِيَفْهَمَهَا مَنْ يَفْهَمُهَا: «إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ عَبْدًا بَيْنَ

الدنيا وبين ما عنده، فاختر ما عند الله^(١).

كان الصحابة يستمعون، ظلّوه درسًا في تفاهة الدنيا، ظلّوا الكلام عن رجل من بني إسرائيل خير الله؛ ولكنّ نشيجًا جاء من إحدى جنبات المسجد، نشيج أبي بكر الصديق، فألقى بظلاله على كلمات النبي ﷺ.

فقال النبي - وقد علم أن أبا بكر وحده من فهم ذلك الحديث المُلغز -: «لا تَبْك يا أبا بكر، لو كنتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أبا بكر خَلِيلًا».

وكأنّه أراد أن يشغله عن ذلك الكرب الذي قُرْب وقوعه، فزاد نشيج أبي بكر، وانهمرت دموعه.

طُرُقَات الْوَجَع

ثم بدأ الوجع يطرق باب الرجل الذي مسح يُمْنَاهُ أَوْجَاعَ الْإِنْسَانِيَّةِ، سمع زوجته عائشة تشتكي صُداْعًا وتقول: وَاِرَاسَاة... فقال بأبي هو وأمي وبنفسي: «بل أنا وَاِرَاسَاة»^(٢).

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري.

الآلم الحقيقي هو الذي أشعُر به يا عائشة، إِنَّه الآلم الذي
سُباعي منه الكون مئات السنين بعد أيام قليلة.

ثم ما زالت الحُمى تُمزق قُوته ^{مُتلا} وتُسلبه القدرة على
المشي، فصار لا يستطيع أن يسير إلا واثنان يقودانه، وقدماء
الشريفتان تخطآن في الأرض، وأحزان الصحابة لحظتها تنهال
على الأرض، وكل شيء يتهاوى على الأرض!

❦ بل الرفيق الأعلى

وبانت المدينة خيمة حزن كبيرة، وكل بيت من بيوت
المهاجرين والأنصار انطفأ سراجُه، ودعوات تصعد من
التوافد إلى السماء بأن يبقى ذلك المصباح ليضيء المدينة،
ليضيء الجزيرة، ليضيء العالم.

تخف الآلام قليلاً، فيخرج النبي ﷺ من حجرته، والصحابة
-رضوان الله عليهم- يؤذون الصلاة، يخرج بوجه نقي منير
كأنه المصحف؛ ليلقي النظرة الأخيرة على مشروعه الضخم،
ليرى إيجازه الأعظم، ليُشاهد أولئك الذين كانوا يسجدون
للأوثان، كيف أنهم باتوا يسجدون للحلِكَ الدِّبَّان.. فيتسم!

يتحدث الراوي أن الصحابة كادوا يُفْتَنُونَ، كادوا يقطعون
صلاتهم فرحاً بابتسامته التي غابت عنهم زمناً.

يعود النبي ﷺ إلى حجراته، فتعود له أوجاعه بأقوى مما
كانت عليه، فتكون عائشة بانتظاره، فيضع رأسه في حجرها،
ثم يقول: بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى.. ثم يجود بنفسه
الشريفة.. ليبدأ ملك الموت بانتزاع أظھر رُوح.

فتتهي في تلك اللحظة قصّة الرجل النّيل، تنتهي قصّة
الرجل الذي جاء والدنيا يأكل بعضها بعضاً، كُفْرًا، وظُلْمًا،
وطُغْيَانًا، فأضاءها، ومسح عنها وَعْثاء الكفر، ثم تركها
وانصرف!

❧ الفجيعة

ثم كانت الفجيعة، فبُهِت الصحابة لهول النّيا!
عاصفة الخبر لم تُبق في شجرة التماسك لديهم ورقة، كلها
نحّأت وانتشرت في أجواء المدينة التي أظلمت فجأة.
بالأمس كانت جنة واردة الظلال، واليوم صارت صحراء
مترامية الأطراف.

وكيف تنماسك نفس انهالت عليها صخور ذلك الحبل
الضخم، حبل الفقد الأبدى، والمراق السرمدي.

كان أبو بكر بالسُّنح، فجاءه الخبر، فلا تسل عن حجم
السواد الذي لفته تلك اللحظة، فانطلق باتجاه الحجرة الشريفة،
ثم كشف عن وجه النبي ﷺ فرأى النور، رأى الحريرة، رأى
الهداية، رأى التاريخ، رأى الذكريات:

أَسْأَلُ عَنْ أَعْمَارِنَا؟ أَنْتَ عُمَرُنَا
وَأَنْتَ لَنَا التَّارِيخُ.. أَنْتَ الْمُحَرَّرُ
تَذُوبُ شُخُوصُ النَّاسِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ
وَأَنْتَ مَعَ الْأَيَّامِ فِي التَّلْبِ تَكْبُرُ

ثم قبَّله قبلة الوداع، ودموعه أغرقت تلك اللحظات،
وصوت النواح يملأ الفراغ الهائل الذي في قلب أبي بكر، ثم
قال: طِبْتُ حَيًّا وَمَيِّتًا يَا رَسُولَ اللَّهِ.

تغدو نظرات الوداع للإنسان الذي لم تكن شيئًا قبل أن
تعرفه كالبيت الموحش المليء بالصدى.

أَمَّا كَلِمَاتُكَ الْآخِرَةُ مَعَهُ، فَمِثْلُ التَّرَابِ الَّذِي تَرَاهُ فِي يَدَيْكَ
وَأَنْتَ خَارِجٌ مِنَ الْمَقْبَرَةِ!

وصرخه أبي بكر العظيمة: «أرجوك لا ترحل»، لم يصرّحها،
ولكنّ الكون كلّ سميعها.

يهض الصديق وعلى كتفيه جبل اسمه الفراق الصعب،
ليتدارك الأمة قبل أن تشقّ في وديان الملح، فإذا بعمر شاهراً
سيفه في المسجد يقول للناس: من زعم أن محمّداً قد مات قطعت
عنه!

فباتي أقرب الناس للنبي ﷺ، وأعرف الناس به وبشريعته
وبمشرّعه العظيم، ويقول: اسكّت يا عمر! ثم يقوم خطيباً،
ويقول للقلوب التي ما زالت تُحالبُها الظنون: «من كان يعبدُ
محمّداً، فإنّ محمّداً قد مات.

فيسقط عمر على ركبتيه..

ثم يكمل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ
مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾.

أغشي على عمر، وفجأة ضاعت الجزيرة التي كان يظن
أن زورقه سيرسو عليها، لقد انتهت آخر فرصة لنجاة رُوحه
المكلومة.

مات! هكذا؟ مات، دون أن يقول لي: وداعاً!

الذي حوّلني من رجل على هامش الحياة، لا يُتَقَنُّ إلّا صرب
الجواري، وتهديد الغلمان، فصرتُ بعدَ عمر الفاروق! الذي
تهرّب منّي شياطين الإنس والجن، مات؟ لن أجلس معه بعد
اليوم؟ لن أمسك يده مرّة أخرى، لن أستنشق عطره للأبد؟

وأما عثمان بن عفّان فأخسر، فيكلمه الناس ولا يكلمهم،
ي دهول، صار لا يرى في هذا الكون إلّا جنازة حبيه قد غطّت
الأفق، فصار الناس يقودونه فينقاد، وكأنّه تائه في هذه الحياة.

وأما عليّ بن أبي طالب فما إن سمع الخبر حتى لُبط بالأرض،
خارت قواه، فسقط.

وأما أنس بن مالك فصار يمشي في طرقات المدينة، وينظر
إليها فيراها مظلمة.

وعبد الله بن مسعود يُمسك عوداً، يَنكُثُ به التراب
ويقول: يوم الخميس وما يوم الخميس؟ يوم زار فيه المرض
رسول الله.

أما فاطمة بنت محمّد ﷺ قأت إليهم وهم يدفنونه فقالت:
كيف رصيتم لكم أنفسكم أن تدفنوا رسول الله؟

وأمتلئة نُفُتْ فُؤاد تلك المدينة المكلومة: كيف مستشفق
في الغد؟ ومن أي جهة على وجه التحديد مستشرق الشمس؟
وكيف ستفتح العصافير النائمة في صباح الغد بالخبر؟

طريق العودة

وجاءت لحظة العودة للبيوت، بعد إيداعه عليه السلام قبره، إنه
أطول طريق عودة يشعرون به! كل شيء في الدنيا فقد طعمه،
وفقد لونه، وفقد بريقه وصار اللون الرمادي موزع على
الأوجه، والياب، والطرق، والأصوات بالتساوي.

حتى نخيل المدينة باتت شكلاً عبثياً آخر؛ يوحى بالموت
أكثر من إيجانه بالحياة.

يصف أنس بن مالك رضي الله عنه تلك المشاعر فيقول: «أَنكَرْنَا
أَنفُسَنَا.. فلم تتغير الطرقات، والأزقة، والأماكن فحسب،
بل حتى الأنفُس! صار طلحة بن عبيد الله يشعر أنه ليس
طلحة بن عبيد الله.. ويات أبو هريرة يشعر بشيء غير أبي
هريرة يسكن نفسه، وصار أنس بن مالك يفقد النبي صلى الله عليه وسلم
وأنس بن مالك!

أسراب الطيور

يسير أبو بكر وعمر، وكل واحد منهما يرى في صاحبه شيئاً من أيام الرجل النبيل، وكأنَّ مصير النبي ﷺ وهو يقول: «ذهبتُ أنا وأبو وبكر وعمر. وخرجتُ أنا وأبو بكر وعمر» يدقُّ في قلوبهما، فلا يُريدان أن يُغيِّرا ما كان يشعر به الرجل النبيل من تعانق رُوحَيهما.

قرَّرا ذات يوم أن يزورا سوياً أم أيمن، كما كان النبي ﷺ يزورها.. فلما وصلا إليها بكت! فقالا لها: ما يُكيكِ؟ إن ما عند الله خير لرسوله..

فقالت: إني أعلم أن ما عند الله خير لرسوله، وأن رسول الله قد صار إلى خير مما كان فيه، ولكن أبكي أن الروحي قد انقطع عنا من السماء.. فهيئجهما على البكاء، فحعلا يكيان معها..

كل وجه يرى يلمحون فيه وجه الحبيب، وكل عطر يعبق يستشقون معه عطر الحبيب، وكل صوت يُسمع يسمعون معه صوت الحبيب..

حتى صوت بلال بن رباح فيه من تلك الأيام الخالدة..
ولكنَّ بلالاً لم يستطع أن يثُرَ صوته كما كان يفعل، فلم تستطع
حنجرته بعد ذلك اليوم أن تؤذُن، فاعتزل الأذان، فصوته
الصوت الذي يأتي معه بأسراب طيور لم تكن تخلق إلا في زمن
الرجل النبيل!

مكث في المدينة مهدود القوى، فمسجد النبي ﷺ، ومنبر
النبي، وبيت النبي.. يُذكره بالنبي ﷺ فيقرر الرحيل ليُداري
أحزانه بطريقة ظنَّها ستُخفف مواجهه؛ فرحل إلى الشام،
والدروب تنوح برباح الوجع.

❦ ضجيج الذكريات

ما أحرق الذكريات إذا ضجَّت بها الأمكنة..

في كل زاوية عطر منه يهب، وفي كل كلمة يسمع الصحابة
نبرته، ومع كل أذان يتخيلون وجهه وهو يتسم.

مسكين. مُعَاذَا كَلِمَا أَمْسَكَ شَخْصَ بِمَنْكِبِهِ التفت بلهفة،
يبحث عن النبي ﷺ، فإذا بوجه آخر، وغصّة أخرى.

محزنٌ أبو بكر! كلما طرقت الرياح بابَه يخرج مسرعاً، ثم لا
يجد أحب الناس.

مؤثر حال عمرو بن العاص ! كلما ابتسم له إنسان يبحث
في ملامحه عن النبي ﷺ، فإذا به ليس الذي كأن الشمس
تجري في وجهه.

مسكين الطفل أبو عُمَيْر ! لم يأت شخص آخر ليسأله: ما
فعل النُّغَيْر؟

مسكين بلال ! لم يسمع ذلك الصوت العظيم الذي يقول
له دائماً: أرحنا بها يا بلال.

مسكين عمر ! لم يقل له شخص آخر: لا تئسنا من دعائك
يا أخي.

مكية المدينة ! فقدت أعظم نور أشرق عليها، فقدت
أروع عطر تَصُوع في طرقاتها، فقدت القلب الرحيم، فقدت
النفس العظيمة، فقدت الرجل النبيل.



المحتويات

٥	ابرهه
٧	الخدمة
١١	افرا باسم ربك
١٤	والعار
١٨	التحول
٢٧	المعجم الوزدي
٢٨	لا أدري
٣٠	ثم من؟
٣١	نحوه وزدي
٣٣	جئت
٣٨	تاريخ الشوق
٤٣	اقوى من النسيان
٤٣	ولا وثانيا وثالثا
٤٥	عرفنا الحزن
٤٦	سمع الجبل
٤٨	اللهم هالة
٤٩	نفس الرماح
٥٠	وفاء للشهامة
٥٥	احمرار الأسى

٥٦	وَيُدْخِلُكَ النَّارَ.....
٥٨	لَمْ تُرَاعُوا.....
٦٠	احْمَرَّ أَلْبَاسُ.....
٦١	الآنَ حَيَّيْ الْوَطِيسُ.....
٦٧	الجزء المقدس.....
٦٨	رُدُّوا لَهَا وَلَدَهَا.....
٦٩	اعْلَمْ أَبَا مَسْعُود.....
٧١	أَيْنَ الْعَبَّاسُ.....
٧٢	غَابَ عَصَافِيرُ.....
٧٣	أَذْهَبِي.....
٧٩	عِنْدَمَا يَكْفِيكَ الْخَصِيرُ.....
٨٠	وَتَرَكْهَا.....
٨٢	فَهَقَّتْ.....
٨٣	جَنَاحُ بَعُوضَةٍ.....
٨٥	إِلَّا أَعْطَاهُ.....
٨٧	عَابِرُ سَبِيلٍ.....
٨٩	اَنْشُرُوهُ.....
٩٣	نَسِيَانُ الذَّاتِ.....
٩٤	الْعَفْوُ عَنْ قِرْعُونَ.....
٩٥	مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟.....
٩٨	رُوحٌ شَاسِعَةٌ.....

٩٩ إن شئت
١٠٥ الإطارُ الأجل
١٠٦ أين محمد؟
١٠٨ بلا مركب
١٠٩ غلبُ الحاشية
١١١ عظيمٌ في خرابية
١١٥ وكان إنساناً
١١٦ إنسانيةً بحته
١١٧ بندُ العادية
١١٨ رعدةٌ خوفٍ
١١٩ المعادلةُ الصعبة
١٢١ لا أريدُ رؤيتك!
١٢٢ فضحك
١٢٤ منحةٌ ملك
١٣١ عبقريةُ الإلهام
١٣٢ الشاعرُ؟
١٣٤ المنبرُ الملائكي
١٣٧ ليهنك العلمُ أبا المنذر
١٣٩ حتى أولئك
١٤١ الأبراجُ المشيدة
١٤٧ رحيقُ البراءة

١٤٨	أَذْهَبْتُ؟
١٤٩	يَا أَبَا عُمَيْرٍ
١٥١	عَنْبُ الطَّائِفِ
١٥٢	بَلْ يَسْتَحِيلُ
١٥٧	رَائِحَةُ الْمَطَرِ
١٥٧	فُطْمُرُ الْحَيَاةِ
١٦٠	فِكْرَةُ الْإِبْتِسَامَةِ
١٦١	فِي أَحْلَاكِ الظُّرُوفِ
١٦٣	نَحْتُ الْمَطَرِ
١٦٤	يَوْمُ الْاِثْنَيْنِ
١٦٩	وَأَظْلَمَتِ الْمَدِينَةُ
١٠٧	وَقَبْرِي
١٧١	وَدَاعًا
١٧٣	وَانْهَمَرَتِ الدَّمُوعُ
١٧٤	طَرَقَاتِ الْوَجَعِ
١٧٥	بَلِ الرِّفِيقِ الْأَعْلَى
١٧٦	الْفَجِيعَةِ
١٨٠	طَرِيقِ الْعُودَةِ
١٨١	أَسْرَابِ الطُّيُورِ
١٨٢	ضَجِيجِ الذِّكْرِيَّاتِ
١٨٤	الْخَاتِمَةِ

الرجال النبيل

والله
أعلم

عبد الله بن عبد الله

لله

دار الهدى



فلا
٢٥٥٥٤٦٧١٥٠٠

المملكة العربية السعودية - الرياض

daralhadarah@hotmail.com

الرقم المخصص: ٩٢٠٠٥٥٩٠٨ / ٣٧٠٢٧١٩ - ٥١١

@daralhadarah ٩٥٥١٥٣١٧٩

